الباب الثانى
فى التعريف بالنقد الأدبى

الفصل الأول
ما النقد الأدبى ؟

— ١ —

لاحظنا فيما مر أن النقد الأدبى فن طبعى فى حياة الانسان متى أوتى حظاً ولو كان هيناً من قوتى الإدراك والشعور ، فذلك يمكنه من فهم الأدب وذوقه ثم الحكم عليه ، وكذلك لاحظنا أن النقد نشأ مبكراً وعاصر الأدب منذ طفولته ولعل أول ناقد وجد عقب أول شاعر سواء أكان نقده سلبياً يقف عند تذوق الشعر فحسب أم إيجابياً يتجاوز ذلك إلى الإفصاح عن هذا الانفعال شارحاً معللا وهكذا بدأ النقد وسائر الأدب في كل عصوره التاريخية .

هذه الأمة اليونانية قد أوتيت منذ بداوتها دقة فى الحس وطلاقة فى اللسان ظهراً فيما كان يلاحظ أبناؤها على الشعراء من مآخذ أو محاسن تتصل باللفظ والمعنى والوزن والإنشاد ، وكان منهم الرواة والمتعصبون ، كما كان بين الشعراء المتنافسون والمتسابقون ، وكانت هذه الملاحظات النقدية قائمة على الذوق الساذج دون أن تكون هناك أصول نقدية مقررة يرجع إليها النقاد . ثم جاء عهد تدوين الالياذة والأدوسا باشارة سولون ، فكان وسيلة للنقد والتحقيق وتمحيص نصوصهما بنفى ماينافض الميول الفردية والاجتماعية والذوقية ، لمكانة الشعر عند اليونان . وعن ذلك صدرت أول نسخة للقصتين فوضعت بذلك حداً لعبث الرواة بهما و إفساد نصوصهما .

فلما كان القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد وجد الشعر التمثيلى واستقر فى أتينة ، ترقى النقد الأدبى ومكن للشعراء أن يتناولوه بطريقة أشمل وأعمق ما دام الشعر التمثيلى نفسه نقداً للحياة وتقويماً لشئونها المختلفة فوجد المجال لاتساع النقد والتعمق فى جوانبه . وأساس هذا النقد الأدبى الحديث ذلك النظام الذى وضعته الدولة للحكم بين الشعراء والفصل فيما ينتجون من قصص ، إذ يقدم كل شاعر جملة من قصصه إلى محكمين يقدمون للتمثيل مايرونه منها صالحاً ، ثم يكون للجمهور المستمع رأيه أيضاً بما يشهد أثناء التمثيل ويتلقى من مؤثرات . ولكنّ حكم الجمهور تعرض للطعن والتجريح لاختلاف طبقاته وعدم قدرته على استبقاء كل العناصر التى تهيىء للحكم السديد ، فعين قضاة من أفراده ينهضون بهذا النقد العادى الذى قضت به القوانين وعنيت بشكله دون جوهره ، دعا الشعراء إلى العناية بالقصص والمنافسة فى إتقانها من حيث موضوعاتها ، ومعانيها ، وأساليبها . وقد تم ذلك فى النصف الأول من هذا القرن . فلما كان نصفه الثانى كانت الحياة اليونانية قد استحالت من وجوه شتى ؛ فالناحية العقلية تقدمت بتقدم الفلسفة وسلطان السوفسطائيين الذين يعتمدون على الخطابة فى التأثير فى الجماهير ، فدعا ذلك إلى درس الخطابة : معانيها وأساليبها وصلة الخطيب بالجماهير . والناحية الفنية من رسم وتصوير وموسيقى ظهرت فيها براعة وطرافة ، ثم ظهرت آراء ونظريات فلسفية أثارت الشك فى الوثنية وفيما ورثه اليونان من أفكار ، فظهر جيل جديد ينكر سابقه ، واشتد التناكر بين جيلى القرن الخامس حتى أثمر طائفة المجددين فى الأدب أيضاً وبخاصة فى فن المآسى ؛ وكتبت قصص نقدية تنعى على الأقدمين مذاهبهم فى فهم التمثيل وفى أساليبه وعباراته وفى موضوعاته ومعانيه ، منها قصة الضفادع لأرستوفان Aristophanes التى ظهرت سنة ٤٠٦ ق م والتى تشبه — أو تشبهها — رسالة الغفران للمعرى . بجانب هذا النقد الذى نهض بين القدماء

والمجددين من أدباء اليونان السابقين وجد نوع آخر كان له حظ من الإزدهار . هو النقد عند الفلاسفة ، عاشت عليه آداب اليونان والرومان وأثر فى الأدب العربى القديم والأدب الأوربى الحديث . وكان يتناول اللفظ والمعنى والموضوع ويتخذ الإلياذة والأدوسا مجالا للبحث والتفكير فلما رأى الفلاسفة أن هومير وأصحابه يصورون الآلهة بما يتنافى مع العقل هاجم جماعة منهم الشعر وأنكروه ، وقام آخرون يفسرونه تفسيراً مجازياً ويدفعون عنه بأنه تصوير خيالى يجب أن يفهم على هذا الوضع الفنى الجميل . وأولئك وهؤلاء لم ينكروا على الشعر ما فيه من جمال يفتن الناس جميعاً فلا بد من فهم أسباب هذا الجمال .

وقد لحظوه فى الوزن فدرسوا أنواعه وعلاقة كل نوع بما يلائمه من معنى وموضوع ، ولحظوه فى اللغة كذلك لامتياز لغة الشعر والشعراء بالطرافة والرشاقة ، ودونوا هذه الملاحظات . وفى أثناء هذه الدراسة اللغوية مفردة ومركبة نشأ علم النحو لأول مرة فى تاريخ الحياة الانسانية ، وباتساع البحث فى الجمل والعبارات نشأ علم المعانى . ثم قد صحب ذلك نهوض سياسى فى نواحى الأقاليم اليونانية دعا إلى كثرة الخصومات والتقاضى ، فكان لابد من الدفاع والمناظرة وهنا ترقت الخطابة ووجد النثر لفائدته الاجتماعية ولخواصه الفنية ، ونشط السوفسطائيون الذين ينكرون حقائق الأشياء ، داعين إلى تحصيل اللذة بالتأثير فى الجماعات والاعتماد على الاقناع لذاته مهما تكن عواقبه . وكانت هذه فرصة مناسبة لدراسة الخطابة ونقدها من جميع وجوهها بجانب درس الشعر ونقده كما أسلفنا .

فلما ظهر سقراط آخر القرن الخامس — وكان أول أمره سوفسطائيا — أثبت حقائق الأشياء وهدم مذهب أساتذته ، وعرّف البيان أو البلاغة بأنها فن استكشاف الحقائق ، وسلك فى ذلك طريقة الحوار المعروفة ، وتلاه تلميذه أفلاطون صاحب نظرية المثل فى الفلسفة ، فقال : إن الأدب أو الكلام ليس فناً يصنعه

الانسان ويتعمده ، وإنما هو وحى و إلهام : تدرك النفوس الصافية حقائق الأشياء ثم تعود فتلقيه على الناس شعراً ونثراً وفلسفة ، والإنسان فى حاجة إلى البيان لنقل ما يلهمه إلى الناس . فالكلام عنده قسمان : فطرى لاحيلة لنا فيه وهو قوة النفس وصفاؤها لتستطيع التلقى والاستيحاء ، ومكتسب وهو الفن البيانى الذى ينشئه المتكلم ملائماً لنفوس القراء أو السامعين ، والنقد الأدبى عنده ليس إلا العلم بطبيعة النفوس وأحوالها وقواها ثم الملاءمة بين ذلك وبين الكلام البليغ . وها نحن أولاء نصل إلى القرن الرابع قبل الميلاد ونلتقى بذلك الفيلسوف الذى يقرأ لكل هؤلاء الفلاسفة والشعراء واللغويين ويسيغ جميع ما يقرأ ويتمثله ، ويكمله ويضع بعد ذلك كله كتابه الخالد فى أصول البلاغة والنقد . ذلك هو أرسطو ، وأما كتابه فهو الخطابة والشعر Poetica and Rhetorica . هذا الكتاب الذى يعد بحق المرجع الأول لكل الدراسات البلاغية والنقدية فى كل المعاهد الراقية[1] .

— ٢ —

ونحو ذلك يقال فى نشأة النقد الأدبى فى تاريخ الأدب العربى ، فقد كان فى الجاهلية عبارة عن ملاحظات على الشعر والشعراء قوامها الذوق الطبيعى الساذج ، وقد مكن له تنافس الشعراء ، واجتماعهم فى الأسواق وأبواب الملوك والرؤساء ، وهذه العصبية للقبيل للشاعر ، ومكانة الشاعر وكلامه بين البادين ، فكان ذلك كله سبباً لتجويد الشعر من ناحية ، ولتعقب الشعراء بالتجريح والتقريظ من جهة ثانية . وكان النقد يتناول اللفظ والمعنى الجزئى المفرد ، ويعتمد على الانفعال والتأثر دون أن تكون هناك قواعد مقررة يرجع إليها النقاد فى شرح أو تعليل ، وينتهى إلى بيان قيمة الشعر ومكانة الشاعر بين أصحابه .

(١) طه حسين : محاضرات فى تاريخ البلاغة .

وقد وجد الرواه الذين يأخذون عن الشعراء و يتعصبون لهم ، كما وجدت مذاهب شعرية واضحة عند زهير والنابغة وغيرهما ، و بقيت الحال كذلك حتى ظهر الشعر الإسلام فنهض الشعر واختصم الشعراء حول هذا الدين الجديد مابين داع إليه منتصر له ، وداع عنه مناهض له ، وكان الرسول وخلفاؤه يؤثرون من الشعر ما هو بسبيل إلى الأخلاق الفاضلة والتعاليم الاسلامية ، ولعل عمر بن الخطاب فى نقده زهير بن أبى سلمى كان مثالا للنقد الإيجابى القائم على التفسير والتعليل حين قال فيه إنه كان لا يعاظل فى الكلام وكان يتجنب وحشى الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه .

فلما تقدم القرن الأول قويت نهضت الشعر ، وتعددت البيئات والمذاهب الشعرية والسياسة وحيت العصبيات الجاهلية وسواها ، فقوى النقد الأدبى تبعاً لذلك ، وتناول عناصر الشعر كلها وشمل الموازنات بين الشعراء وتقسيمهم طبقات . وكان هذا النقد امتداداً للنقد الجاهلى من حيث اعتماده — بين الأدباء — على الذوق والسليقة ، وكان يدور حول فحول الشعراء ، كجرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة ، وشعراء الغزل البادين والحاضرين كجميل وكثير ونصيب وعمر بن أبى ربيعة ، وشعراء الأحزاب السياسية المختلفة . وبجانب هذا النوع الفنى وجد نقد آخر لغوى نحوى نهض به اللغويون والنحاة ، علماء البصرة والكوفة خاصة ، ويقوم على الصلة بين الأدب وأصول النحو واللغة والعروض وإن لم يتجرد هؤلاء العلماء فى نقدهم عن الذوق الفنى مطلقاً ، واتسع النقد فوجدت فيه جوانب جديدة كملاحظة الصلة بين الشاعر وشعره من جهة و بين بيئته من جهة أخرى ؛ فعدى ابن زيد تأثر بالحاضرة وما فيها من أخلاط الناس فنال ذلك من فصاحته اللغوية وملكته الشعريه وابن قيس الرقيات ليس بفصيح ولا ثقة شغل نفسه بالشرب بتكريت . ومنها ما لحظه الأصمعى من ضعف شعر حسان بن ثابت فى الاسلام

لأن الشعر قائم على الأهواء والشر ، فاذا دخل فى الخير ضعف . ومعنى هذا أن الشعر صدى للحياة الاجتماعية كذلك . ومنها ما عنى به ابن سلام من النظر فى انتحال الشعر وصحة إسناده إلى من يسند إليه .

فلما كان القرن الثانى جدت عوامل كثيرة نهضت بالأدب والنقد فانصل الجنس السامى بالآراى ، واشتد النشاط العلمى ، واستحالت الحياة الاجتماعية الفنية وقامت ثورة على الأدب القديم من بعض خواصه جربها أبو نواس وعمل فى ظلها غيره أمثال بشار وأبى العتاهية ومسلم بن الوليد وغيرهم ممن تزعموا طبقة المحدثين ومهدوا لسواهم سبيل هذا الشعر الحضرى الحديث ، وتأثر الشعر بهذه الاستحالة فى ألفاظه ومعانيه وأوزانه وصياغته وإن لم يترك دائرة الغناء إلى القصص أو التمثيل وتبع ذلك قيام النقاد يفضلون بين مذهب من الشعر : قديم يتجه إلى الجاهلية وصدر الاسلام يتخذونهما مثله ، وحديث يلتفت حوله ويجرى مع مقتضيات الحياة المتجددة ، فيعمق المعانى ويبتكرها ويلتفت إلى العبارة صانعاً أو متصنعاً ، ووقف النقد طويلا بين هذين المذهبين فوق ما تناول من النواحى السابقة ويستمر الحال كذلك حتى يحل القرن الثالث فاذا بالعلماء والباحثين يتقاسمون الثقافة الاسلامية ، فرجال الدين يعنون بالقرآن والحديث والفقه والأصول ، ورجال اللغة يجمعونها ويدونون النحو والعروض ، والمترجمون ينقبون فى آثار الفرس والروم والسريان وينقلون منها إلى العربية الصالح المقبول . وهذه الحياة العلمية هى التى أنشأت الجاحظ وسهل ابن هارون وأبا تمام وابن الرومى وسواهم من الشعراء . والنقد يستحيل كذلك وإذا به يصدر عن ذهنيات أربعة اللغويين ، والأدباء والعلماء الذين أخذوا نصيباً يسيراً من المعارف الأجنبية ، والعلماء الذين تأثروا كثيراً بما نقل عن اليونان . وتنتهى أصول النقد عندهم إلى أصلين عامين : ما يسرى إليهم من العصور السابقة ، وما استجد لهم من أثر الفلسفة والجدل والبلاغة والمنطق .

ولكل فريق مزاجه ومذهبه وما ترك من كتب ورسائل ، وحسبنا أن نذكر المبرّد وأبا سعيد السكرى من اللغويين ، وابن المعتز من الأدباء ، وابن قتيبة صاحب الشعر والشعراء من العلماء الأولين ، وقدامة بن جعفر صاحب نقد الشعر والنثر من الذين تأثروا بالفلسفة كثيراً وقد كان من آثار ذلك تفاوت مناحى النقد الأدبى ، والوقوف على خواص الشعر المحدث وما يؤخذ عليه ، و إن لم يبلغ رجاله فى التفسير والتعليل والنظام ما بلغه نقاد القرن الرابع . فاذا كان الشعر العربى قد بلغ فيه — فى القرن الرابع — ذروته فان النقد القديم انتهى فيه إلى غايته سواء من جهة سعته وشموله أو من جهة عمقه ودقته أو من جهة براءته من الحدود الفلسفية إلى درجة واضحة ، ولذلك لتفرد النقاد الأدباء تقريباً بهذا الفن ونضج ملكة الذوق عندهم من كثرة مادرسوا ، ووازنوا ، وجمعوا بين جمال الطبع لتضلعهم فى الأدب القديم وحسن الصنعة من ممارستهم الأدب الحديث فصفا ذوقهم وعاد مهذباً لطيفاً سديداً .

وكان نقدهم ممتازاً بالعمق وسعة الآفاق وتحليل الظواهر الأدبية و إرجاعها إلى أصولها الصحيحة وعاد نكرا ما كان يحب قدامه أن يفرضه على الشعر من قوانين المنطق وأصول الأخلاق والفلسفة ، وكانت المعركة بين النقاد تدور حول أبى تمام والبحترى ثم بين المتنبى وخصومه ، وكسب النقد من وراء ذلك عدة كتب ورسائل قيمة تؤرخه فى القرن الرابع مثل كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى ، وأخبار أبى تمام للصولى ، والوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ، عدا كتاب الأغانى لأبى فرج الأصفهانى ورسالة الصاحب بن عباد فى الكشف عن مساوئ المتنبى ورسالة الحاتمى فيما توارد من المعانى بين أبى الطيب المتنبى وأرسطو . ودخلت مسألة السرقات الشعرية فى باب النقد . وكانه لم يبق شىء نقدى غفل عنه أدباء القرن الرابع أو لم يفتحوا فيه على أقل تقدير[1] .

(١) طه ابراهيم : تاريخ النقد الأدبى عند العرب .

و بعد ذلك سار النقد يتأثر مارسمه هؤلاء ، ما استطاع ، فى خلال القرون التالية فاذا تدهور الأدب تبعه النقد و إذا صار حرفة متصنعة ميتة مات النقد معه حتى كانت النهضة المعاصرة فعادت الحياة الأدبية تستأنف نشاطها من جديد ، وأخذ النقد يستيقظ ويذهب فيه المعاصرون مذهبين رئيسين تبعاً لما توافر لكل فريق من نوع الثقافة العربية أو الغربية و إن أخذت الثانية تسيطر على الدراسة وتحاول أن تنفرد بالسلطان[١]

و إنما أشرنا إلى هذا الجانب التاريخى قبل الخوض فى تعريف النقد رجاء أن نجد فى هـذا العرض ما ينفعنا فى التعريف بالنقد الأدبى ، و بيان حدوده التى انتهى عندها ، والخطأ التى سلكها إلى غايته فى تقدير الأدب ، والفصل فى الخصومات والبت فى الأحكام . وأول مانلحظه أن النقد ليس أحكاماً فارغة طائشة ، بل قائمة على الفهم والتفسير ، والتعليل ، ثم الاحتياط فى النتائج الأخيرة أو الأحكام . نعم إن هذه الدرجات لم تكن صريحة فى جميع أطوار النقد الأدبى عند اليونان أو العرب كما رأيت ، ولكنها فيما أفهم كانت مضمرة أو موجودة بالقوة فى نفوس النقاد إن صح هذا التعبير ؛ فاذا عاب طرفة بن العبد على المتلمس نعته البعير بنعت النوق حين قال المتلمس :

وقد أتناسَى الهمَّ عند ادِّكاره بِناجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مكدم[٢]

فقال طرفة استَنْوقَ الجمل ؛ أفليس هذا التجريح ثمرة فهم طرفة ، وعده مافعل المتلمس خطأ بالمقياس إلى ماهو مقدر عند الجاهليين من تخصص كل نوع بأوصاف و إذاً فهذا حكم معلل مفسر يكاد يكون موضوعيا أو هو كذلك بالفعل ثم نجد الموازنة بين الشعراء من أبواب النقد الأدبى ، وكانت قبل ذلك وستبقى

(١) أحمد الشايب : المرجع السابق : تمهيد .

(٢) الصيعرية سمة تكون فى عنق الناقة لاالبعير ، ناج جمل سريع ويغلب هذا فى وصف الناقة فيقال ناجية . مكدم صلب ، راجع الموشح للمرزبانى ص ٧٦ .

وسيلة من وسائله و إحدى مقدماته اللازمة ، وكذلك الأخذ أو السرقات الأدبية على العموم ، رأيناها تحتل مكانة ممتازة عند النقاد ، وما ذاك إلا لأن الحكم على مكانة الشاعر كان يتصل بما قد يبتكره من المعانى أو يتبع فيه سواه بصورة ما ، وأخيراً نلاحظ أن الذوق الفردى والاجتماعى كان عمدة النقد الأدبى ومقياسه الأول و إليه مَرد القضايا والأحكام فى تقرير الأدب و بيان درجته الفنية ، فهذا كله يمهد لتعريف النقد و ييسر علينا فهم ما يقال فيه[1] .

— ٣ —

فما النقد الأدبى ؟

فى المحيط ولسان العرب وغيرهما : والتنقاد والانتقاد تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها أنشد سيبويه :

تَنفى يداها الحصى فى كل هاجِرة نَفْىَ الدراهيم تنقادُ الصيارِيفِ[2]

ونقدتُ الدراهمَ وانتقدتها أخرجتُ منها الزيفَ . فهذا المعنى اللغوى الأول يشير إلى أن المراد بالنقد التمييز بين الجيد والردىء من الدراهم والدنانير ، وهذا يكون عن خبرة وفهم وموازنة ثم حكم سديد وهناك معنى لغوى آخر يدل عليه قولهم أيضاً نقدت رأسه بأصبعى إذا ضربته ونقدت الجوزة أنقدها إذا ضربتها . وعلى ذلك يفسر حديث أبى الدرداء أنه قال : إن نقدت الناس نقدوك و إن تركتهم تركوك . معناه إن عبتهم واغتبتهم قابلوك بمثله . فالنقد هنا معناه العيب والثلم أو التجريح . وضده الإطراء والتقريظ من قرظ الجلد إذا دبغه بالقرظ

---

(١) وقد لخص الأستاذ مندور مقاييس النقد العربى فى رسالته « تيارات النقد الأدبى فى القرن الرابع الهجرى » ص ٤٠٠ (مخطوطة) ولكنها دراسة تاريخية نتركها لموضعها .

(٢) فى وصف ناقة ، تنفى تدقع ، الهاجرة شدة الحر . الصيارِيف مفرده صيرفى بياع النقود بغيرها من النقود — يشبه نثرها الحصى بنثر الصيرفى الدراهم .

وأديم مقروظ إذا ذبغ أو طلى به : وذلك إنما يكون للتحسين والتجميل فالنقد للذم والتقريظ للمدح والثناء ومن المعانى التى تستعمل فيها هذه المادة لدغ الحية ، وقبض الدراهم وأخذ الطائر الحب واحدة واحدة . فهذه هى أهم المعانى اللغوية لمادة النقد ، ولعلها أو أكثرها ملائم لما يراد هنا من معنى ، فقد استعمل النقد فى معنى تعقب الأدباء والفنيين والعلماء والدلالة على أخطائهم و إذاعتها قصد التشهير أو التعليم ، وشاع هذا المعنى فى عصرنا هذا ، وصارت كلمة النقد إذا اطلقت فهم منها الثلب ونشر العيوب والمآخذ، وقديماً ألّف أبو عبدالله محمد بن عمران المرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (كتابه الموشّح) فى مآخذ العلماء على الشعراء ضمنه ماعيب على الشعراء السابقين من لفظ أو معنى أو وزن أو خروج على المألوف من قوانين النحو والعروض والبيان ، وشاع بجانب ذلك عندنا تقريظ الكتب والأشخاص والمذاهب السياسية والاجتماعية والآثار الفنية مما يعد أكثره رياء ومجاملة دون أن يكون له حظ حقيقى من الحق والانصاف . فهذا الاستعمال له أصل لغوى كما رأيت و إن لم يكن هو المقصود المقرر بين النقاد المنصفين .

أما المعنى اللغوى الأول فلعله أنسب المعانى وأليقها بالمراد من كلمة النقد فى الاصطلاح الحديث من ناحية وفى اصطلاح أكثر المتقدمين من ناحية أخرى . فإن فيه كما مر معنى الفحص والموازنة والتمييز والحكم . و إذا ما وقفنا عندما يقوله الثقات من النقاد رأيناهم لا يتجاوزون هذه المعانى فى حد النقد وفى ذكر خواصه ووظيفته . فالنقد دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها المشابهة لها أو المقابلة ، ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها ، يجرى هذا فى الحسيات والمعنويات ، وفى العلوم والفنون وفى كل شىء متصل بالحياة . وقد رأينا السابقين الذين كتبوا فى النقد العربى أميل إلى حمل لفظ النقد على هذه المعانى المتواصلة ، فنقد الشعر لقدامة ونقد النثر المنسوب له وكتاب العمدة لابن رشيق فى صناعة

الشعر ونقده ثم ما يتصل بذلك من كتب الموازنة ، كلها عبارة عن دراسة الشعر أو النثر وتفسيرهما و بيان عناصرهما وفنونهما وما يعرض لهما من أسباب الحسن أو القبح ، والتنبيه على الجيد المقبول والردىء المنبوذ إلى نحو ذلك مما هو إيضاح وعرض ثم تفسير وموازنة ثم أحكام ونصائح أو قوانين نافعة فى فن الأدب منظوماً ومنثوراً .

وهنا نستطيع أن نتقدم قليلا فنذكر ما يقوله المحدثون فى تعريف النقد ، فهو عندهم التقدير الصحيح لأى أثر فنى و بيان قيمته فى ذاته ودرجته بالنسبة إلى سواه . والنقد الأدبى يختص بالأدب وحده و إن كانت طبيعة النقد واحدة أو تكاد ، سواء أكان موضوعه أدباً أم رسماً أم تصويراً أم موسيقا[1] فالنقد الأدبى فى الاصلاح هو تقدير النص الأدبى تقديراً صحيحاً و بيان قيمته ودرجته الأدبية . ولايضاح هذا التعريف وتحليله نستطيع أن نذكر بجانبه الملاحظات الآتية :

(١) يبدأ النقد وظيفته بعد الفراغ من إنشاء الأدب ، فالنقد يفرض أن الأدب قد وجد فعلا ، ثم يتقدم لفهمه وتفسيره وتحليله وتقديره ، والحكم عليه بهذه الملكة المهذبة أو الملهمة التى تكون لملاحظاتها قيمة ممتازة وآثار محترمة . أما القدرة على إنشاء الأدب أو تذوقه فليس فى مكنة النقد خلقهما من العدم و إن كان يزيدها تهذيباً ومضاء . على أن هذه الملكات الثلاث — إنشاء الأدب وتذوقه ونقده — قد توجد معاً متجاورة متعاونةفى نفس الأدب الموهوب .

(٢) يدل هذا التعريف على أن الغرض الأول من النقد الأدبى إنما هو تقدير الأثر الأدبى ببيان قيمته فى ذاته قياساً على القواعد أو الخواص العامة التى

---

(١) راجع أصول النقد الأدبى تأليف Winchester ، ص ١ وأصول البلاغة الأستاذ Genung ، ٥٩١ . والفصل الثانى من « فنون الأدب » لنشارلتن تعريب زكى نجيب محمود .

يمتاز بها الأدب بمعناه العام أو الخاص وهو النوع التوضيحى الذى يعين على الفهم والذوق . وأما القول فى درجته بالنسبة لغيره فهو فى المنزلة الثانية . ومثله فى ذلك محاولة ترتيب الأدباء ترتيباً مدرجاً حسب كفاياتهم المتفاوتة أو وضع نظام للموازنة بين آثارهم المختلفة — وهو النوع الترجيحى الذى يعنى بالمفاضلة بين الأدباء — وذلك لكثرة الفروق الأساسية بين الشعراء والخطباء والكتاب والمؤلفين ، وقلما نجد منهم طائفة بينها مشابهات تسمح بعقد هذه الموازنة التى تحدد براعاتهم المتقابلة . فاذا سئلت عن جرير والفرزدق والأخطل . أيهم أشعر ، فجوابك السديد هو أن كلا منهم أشعر ، معنى ذلك أن كلا منهم يفضل زميليه ببعض الصفات اللفظية أو المعنوية أو الموضوعية فى حين أنك قد لاتجد بينهم من وجوه الاتفاق ما يكفى لعقد موازنة صالحة . ومع ذلك فيستطيع كل إنسان أن يؤثر ما يحبه ويرفض ما عداه من آثارهم جميعاً ، وعلى النقد توضيح الميزات الجوهرية لتفوق كل شاعر ، فيساعدنا بذلك على تقدير كل منهم تقديراً أقوم وأهدى سبيلا[1] .

(٣) ومهما تكن وظيفة النقد وغايته التى يعمل لتحقيقها فلا بد للناقد أن يكون ثاقب النظر ، سريع الخاطر ، مهذب الذوق قادرا على المشاركة العاطفية مع الأديب والبراءة من المؤثرات التى تفسد عليه أحكامه كما يمر فيما بعد ، وذلك كله فوق الثقافه الأدبية العلمية ، والتمرس بالأدب ، ومعرفة أطواره التاريخية ، وصلاته بالفنون الأخرى ، وحسن فهمه وتعمقه إلى أبعد غاية ، ليتيسر له الإنصاف والحكم الصحيح . وقد استطاع بوب (Pobe) أن يرد المصادر الرئيسية التى يستقى منها النقد إلى مراجع ثلاثة (١) وهى فكرة الطبيعة (٢) وفكرة آثار السلف (٣) وفكرة العقل ، ولا بد من الرجوع إلى الثلاثة جميعاً . وليس معنى هذا أن الأديب مطالب بأن يكون موزعاً بين هذه

(١) لاسل أبركرومبي : قواعد النقد الأدبى ، ترجمة محمد عوض ، ص ١٦٣ .

الثلاثة لأن سلطان كل من هذه المراجع مثبت لسلطان الآخرين ، فالواجب أولا أن نتبع الطبيعة ، ولكن لكى يتسنى لك ذلك لابد من دراسة آثار القدماء لأن القدماء كانوا على وفاق مع الطبيعة ، وليس هناك خلاف بين الطبيعة و بين الشعر القديم ، ودراسة القدماء معناها دراسة الفن الذى ينطبق دائماً على العقل ، وسيأتى إيضاح ذلك فى أثناء الفصول التالية .

(٤) و إذا كان موضوع الأدب هو الطبيعة والإنسان ، فان موضوع النقد الأدبى هو الأدب نفسه أى الكلام المنثور أو المنظوم الذى يصور العقل والشعور يقصد إليه النقد شارحاً ، محللا ، معللا ، حاكماً ، يعين بذلك القراء على الفهم والتقدير و يشير إلى أمثل الطرق فى التفكير والتصوير والتعبير . و بذلك يأخذ بيد الأدب والأدباء والقراء إلى خير السبل وأسمى الغايات . والنقد يقوم على ركنين مباشرين الناقد والمنقود .

ولما كان للذوق الأدبى دخل قوى فى باب النقد الأدبى ناسب أن نفرد للبحث فيه فصلا خاصاً بعقب التعريف بالنقد ذاته .

الفصل الثانى

فى الذوق الأدبى

— ١ —

لعل كلمة الذوق Taste أكثر الكلمات دوراناً على ألسنة النقاد لشدة اتصالها بما يصدرون من أحكام ، ولأن الذوق فى رأى الانفعاليين الفيصل الفذ فى وصف الأدب وتذوقه سواء أكانت نتيجة التذوق والتأثر ثابتة أم متغيرة بتغير الأوقات والبيئات . لهذا كان من اللائق أن نفرد له هذا الفصل محاولين كشف الغطاء عن بعض جوانبه تاركين جانباً هذه النقط الغامضة التى لما ينتهى البحث العلمى فيها إلى رأى واضح فصار الكلام عنها مبهماً مضطرباً لا يدل على شىء .

فى المحيط : ذاقه ذوقا وذوقانا ومذاقا ومذاقة اختبر طعمه ، وتذوّقه ذاقه مرة بعد مرة . وفى المنجد الذوق ملكة تدرك بها الطعوم ، والذوق الطبع يقال هو حسن الذوق للشعر أى مطبوع عليه . ويقول ابن خلدون فى مقدمته بعد تفسير الذوق بأنه حصول ملكة البلاغة للسان : « واستعير لهذه الملكة ، عندما ترسخ وتستقر ، اسمُ الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان ، وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه ، وأيضاً فهو وجدانى للسان كما أن الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق »[1] .

ومعنى هذا أن الذوق فى معناه الحسى الأول علاج الأشياء باللسان لتعرف

---

(١) المقدمة ، ص ٦٤٣ مطبعة التقدم .

طعمها ، ويتبع ذلك الدلالة على ثمرة الذوق من حلاوة أوملوحة أو مرارة أوحموضة ، ثم النفورمن الأشياء أو الاطمئنان إليها ؛ فهنا مقدمة وحكم وعمل . وانتقلت الكلمة بعد ذلك إلى علاج الأطباء بالنفس لتعرف خواصها الجميلة أو الذميمة كحسن الألوان وتناسبها وجمال الألفاظ وبلاغتها ووقوعة الأنغام واتساقها . وعكس ذلك . وبهذا دخلت دائرة الفنون الجميلة لتدل على هذه الملكة أو الموهوبة التى تدرك مافى الآثار الفنية من كمال وجمال أو نقص ودمامة . وكانت فى الأدب لتدرك حسن التعبير اللغوى أو قصوره فتمهد بذلك للحكم السديد والتفسير الواضح الصحيح .

ويعرف الذوق بأنه قوة يقدر بها الأثر الفنى ، أو هو ذلك الاستعداد الفطرى المكتسب الذى نقدر به على تقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته بقدر ما نستطيع فى أعمالنا وأقوالنا أفكارنا[١] ويقول الأستاذ أحمد ضيف : « ولا يصح أن يبنى النقد على الأذواق الخاصة لأن الذوق استحسان ما يحبه الانسان ويميل إليه وهذا عير ما يراد من النقد ، إذ النقد الصحيح تحليل فكر شخص آخر غير فكر القارىء نفسه واندماج الانسان فى نفس غيره ليفهمه بفكره ويدرك عقله بعقله والذوق تحليل نفس القارىء وفكره لمناسبة ما يقرأ وبسبب ما يجده مما هو فى نفسه فى كلام غيره إذ شعور القارىء بسروره ورضاه عما يقرأ. هو فى الحقيقة ناشىء من أنه وجد ما يحبه وما يميل إليه وذلك شىء من خواص نفسه وميولها الذاتية فكأنه إنما وجد فيما يقرأ نفسه لا نفسَ الكاتب وعجب بميوله وآرائه لا بميول الكاتب وآرائه أو أنه وجد إنساناً آخر صور نفسه بالصورة التى هى عليها ووجد أفكاره يعبر عنها غيره فهو إذ فهم ذلك فإنما يفهم نفسه »[٢] ومن ذلك يكون الذوق الأدبى هو القوة التى يقدر بها الأدب . ومعنى قدر الأدب بيان قيمة نصوصه

---

(١) حامد عبد القادر : فى علم النفس ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .

(٢) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ٩٢ .

ودرجتها كما ذكر ذلك فى تعريف النقد ، فكأن الذوق هو وسيلة النقد الأدبى وأداته ، وهذا صحيح إذا كنا نفهم الذوق على أنه خلاصة العوامل الفطرية والمكتسبة التى يقوم عليها نقد الآداب .

وليس الذوق ملكة بسيطة كما قد يتوهم ، ولكنه مزيج من العاطفة ، والعقل ، والحس ، وربما كانت العاطفة أهم عناصره وأوسعها سلطاناً فى تكوينه ومظاهره وأحكامه ، وكان تأليفه هذا من أسباب اختلافه باختلاف الأفراد إذ يندر أو يستحيل أن تجد اثنين يتفقان فيما يصيبان من هذه العناصر كيفا وكما ، وكان لذلك مظاهره فى نقد الأدب ؛ فمن غلب عليه عنصر الفكر آثر شعراء المعانى أمثال أبى تمام وابن الرومى والمتنبى والمعرى وفضل كتاب الثقافة كالجاحظ وابن خلدون ومن غلبت عليه العاطفة فتن بشعراء النسيب الحماسة والعتاب ، وبالخطباء والوصاف ، ومن كان شديد الحس فضل أسلوب البحترى وشوق كما يفضل الموسيقى والرسم الجميل .

والمقرر أن الذوق فى أصله هبة طبيعية تولد مع الانسان فيُعبر عنها بصفاء الذهن وخصب القريحة وجمال الاستعداد ، ويظهر أثر ذلك فى ميل الناشىء الموهوب منذ الطفولة إلى كل جميل من الأدب والفن ومحاولة تقليده ونجاحه فى ذلك دون غيره ممن سلبوا هذا الاستعداد ، فهم عاجزون عن هذا التذوق وعن فهم الجمال ومحاكاته ، ولكن يبلغ بهم الدرس إلى نبوغ وإن صقل مواهبهم بعض الشىء .

وبعد ذلك يأتى التهذيب والتعليم فليس من شك أن الدرس ينمى الذوق ، ويهذبه ، ويسمو به إلى درجة محمودة ، فالأديب ذو الفطرة الذواقة ، يفيد من قراءة الأدب ومعالجة الفنون ، فتراه بعد قليل مصقولَ الذوق ثاقبَ الذهن يضع يده على العبارة البليغة ، والخيال الجميل ويدرك صدق العاطفة وينفر من كل مضطرب من الأدب كاذب ، ويكون لتربيته العقلية والعلمية دخل كبير فى كمال

أحكامه الأدبية واتزانها كما يكون أقدر على إنشاء الأساليب البارعة ، وصوغ الأخيلة الجميلة وصدق التعبير عن أسمى العواطف وأقواها ، وإذا سألته عن سر البلاغة أو العى استطاع التعليل وأصاب وجه الصواب . من أمثلة ذلك ما لحظه عبد القاهر الجرجانى[١] فى قول الشاعر — وأن لم يفسره عبد القاهر — وتمثل به أبو بكر حين أتاه كتاب خالد بالفتح وهزيمة الأعاجم :

تمنّانا ليلقـــانا بقـــومٍ تخالُ بياضَ لأمِهمُ السرابا[٢]
فقد لاقيتَنا فرأيتَ حرباً عَوانًا تمنعُ الشيخَ الشرابا[٣]

أنظر إلى موضع الفاء فى قوله : فقـــد لاقيتنا فرأيت حرباً . هذا كلام عبد القاهر .

وهذه الفاء — فيما أرى — صلة بين أمل العدو الخائب وشماتة عدوه الظافر ، وهى كذلك رمز المفاجأة الخطيرة ، والوجه المنتصر يلقى الوجه المغلوب وكذلك فى قول العباسى بن الأحنف .

قالوا : خُراسان أقصَى ما يُراد بنا ثم القفولُ ، فقد جئنا خُراسانا

فانها هنا رمز الأمل الموعود ، والرغبة فى العودة ، ومحاسبة القائلين ، والتفاتةُ القلب إلى الوطن الأول .

وانظر إلى هذه الصورة الجميلة فى قول الله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » التى تريك المشيب يشيع فى الرأس ويأخذ بنواحيه حتى لم يبق من السواد شىء أو لم يبق منه إلا ما لايعتد به ، وقول الشاعر :

سَالتْ عليه شِعابُ الحىّ حين دعا أنصـــارَه بِوجوهٍ كالدنانيرِ

فانه يصوّر النجدة الزاخرة ، والعاطفة المشتركة ، والبهاء النضر ، والحماسة

---

(١) دلائل الاعجاز ، ص ٧٣ وما بعدها . (٢) اللأم جمع لأمة بمعنى الدرع .
(٣) العوان أشد الحروب .

الملتهبة ومثل ذلك قول المتنبى فى سيف الدولة وقد بنى قلعة الحدَث على درب الروم :

غصبَ الدهرَ والملوك عليها وبناها فى وجنة الدهر خالاَ

فهذه صورة قوية جميلة لقيت كِفاءها من التعبير القوى الجزل ، فأتى بالخال منصوباً على الحالية من الهاء ، ثم صور الدهر إنساناً يقصد إليه سيف الدولة ويزين صفحة وجهه بأجل الأعمال أو بأجل السمات .

— ٢ —

والذوق بعد ذلك أقسام ، منه الذوق الحسن وقد يسمى السليم أو الجميل أو الصحيح أو نحو ذلك مما يشير إلى تهذيبه وصدق أحكامه ودقة فرقه بين الأدب الصادق الجميل والأدب المتصنع السخيف ، ومنه الذوق الردىء أو السقيم أو الفاسد وهو الذى لايحسن التفرقة بين أنواع الأدب من حيث القيمة الفنية أو الذى يؤثر السخيف المطَّرح أو الذى لا يحسن شيئاً مطلقاً . والنوع الأول هو المراد فى باب النقد وإليه تنصرف كلمة الذوق إذا أطلقت وقد وصفه صاحب الوساطة بقوله : « فانما نعنى الذوق المهذب الذى صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة وألهم الفصل بين الردىء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبيح » وأصحاب الذوق السليم قليلون وهم مضطرون دائماً إلى حفظ أذواقهم من الآفات التى تفسدها .

ومنه حسي يتصل بالطعوم والألوان والأصوات والروائح والمناظر فلا يعنينا هنا مباشرة . ومعنوى يتجه إلى الأخيـــلة والأفـكار والأخلاق والمذاهب والأنظمة والقوانين .

وقد يقسمونه إلى ذوق سلبي أو قابل يدرك الجمال ويتذوقه دون القدرة على تفسير ما يدرك أو تعليله ، وصاحبه عاكف على نفسه يظفر بالمتعة الأدبية ويقنع بها فتضيء نفسه وتغذى عواطفه ووجدانه ، وذوق إيجابى وصاحبه يدرك الجمال

و يفرقه من الدمامة ثم يعبر عن ذلك مبيناً مواطنه ثم يعلل كل صفة أدبية ، يسمع أو يقرأ البيت أو القصيدة أو الرواية فيستطيع بسهولة أن يدلك على مواطن الحسن أو القبح ذاكراً أسباب ذلك مقترحا ما يجب أن يكون . وقد رأيت طرفا من أمثلة ذلك فيما مضى ، على أن من أسباب الجمال ما لم يكن وصفه أو تعليله لأنه نتاج عبقرية معقدة أثمرته فكان عجيباً ساحراً تسكن إليه القلوب وتحار فى تعليله العقول ، هو ذلك النوع الذى يقرؤه سواد الناس فيفهمونه ثم يقرؤه الخاصة فيفتنون به و يحارون فى تعليل حسنه ثم لايحسن واصفهم إلا أن يقول : هذا هو السحر الحلال[١] وقد يكون من أسباب سحره سمو الخيال أو بساطة الأداء أو طبع الأديب ونفسيته العجيبة أو كل ذلك وسواه . وقد بينت فى غير هذه الفصول كيف عجز ابن قتيبة عن تبين أسرار الجمال الأدبى فى قول المعلوط : —

ولما قضينَا مِن مِنى كلَّ حاجةٍ ومسَّحَ بالأركانِ مَن هو ماسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المهارِى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائحُ
أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننَا وسالتْ بأعناقِ المطىّ الأباطِحُ

فوصفها بأنها أحسن شىء مطالع ومخارج ومقاطع ثم لم ير فيها غير هذه المعانى العادية التى هى عنصر الفكرة غافلا عن العاطفة الصادقة والخيال الجميل[٢] وربما عرضنا لنقد هذه الأبيات فيما يلى .

وربما كان أهم تقسيم للذوق هو انقسامه إلى عام وخاص . ونلخص هنا ما أورده الأستاذ طه حسين فى رسالته « حافظ وشوقى » : هناك ذوقان لكل واحد منا حظ منهما يختلف قوة وضعفاً ، و يتفاوت سعة وضيقاً باختلاف مالشخصيته من القوة والظهور ، هناك ذوق فنى عام يشترك فيه أبناء الجيل الواحد فى البيئة

---

(١) زكى مبارك : الموازنة بين الشعراء ، ص ٤٥ .

(٢) راجع صحيفة دار العلوم عدد ٢ ، ص ٣ من السنة الثانية وأسرار البلاغة ص ١٥ .

الواحدة وفى البلد الواحد لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعاً بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم ، وهذا الذوق يتسع ويضيق ، ويقوى ويضعف ، فأهل مصر يشتركون فيه اشتراكا قوياً وهذا الاشترك هو الذى يجمعهم على الإعجاب ببعض الآثار الفنية . وهذا الذوق يضيق أحياناً ويتأثر فى ضيقه هذا بالظروف التى تحيط بالطبقات والجماعات ، فأهل مصر على اشتراكهم فى هذا الذوق العام تتفاوت حظوظهم منه بتفاوت بيئاتهم وجماعاتهم فلأهل الأزهر ذوق خاص يكادون يستبدون به وقريب منه ولكنه يفارقه ببعض الشىء ذوق مدرسة القضاء ودار العلوم . وللجامعيين ذوق خاص أو قل أذواق مختلفة : ذوق يتأثر بالذوق الانجليزى وآخر يتأثر بالذوق اللاتينى ، ذوق يتأثر بالعلم وآخر يتأثر بالأدب وثالث يتأثر بالتاريخ ورابع يتأثر بالفلسفة وعلى هذا النحو . وهناك ذوق آخر فنى يتأثر بهذا الذوق العام ولكنه مع ذلك متأثر بالشخصية الفردية أو هو مظهر ومرآة يمثلها صادقاً يستبد به الفرد أو يكاد يستبد به لا يشاركه فيه أحد غيره . وهذان الذوقان — العام والخاص — هما الذان يقضيان بأن هذه القصيدة الشعرية الرائعة تنشد فنشترك فى الاعجاب بها أو قل فى مقدار من الإعجاب بها عام سواء ، أو كأنه سواء بيننا . ثم لا يمنع ذلك أن يكون لكل واحد منا إعجاب خاص بالقصيدة كلها أو بالبيت من أبياتها لا يستطيع أحد أن يشعر به ولا يقدره . والحياة الفنية إنما هى مزاج من هذين الذوقين فيه الوفاق حيناً ، وفيه الصراع حيناً آخر ، والذوق العام هو الذى يعطى الحياة الفنية حظاً من الموضوعية ، وهذه الأذواق الخاصة هى التى تعطى الحياة الفنية حظاً من الذاتية[1] .

ويمكن أن يضاف إلى هذين قسم ثالث هو الذوق الأعم الذى يشترك فيه

(١) حافظ وشوقى ص ٢٣ .

الناس بحكم طبيعتهم الإنسانية التى تحب الجمال وتتذوقه طبعياً كان أم صناعياً ، وهذا القدر المشترك بين النفوس البشرية هو الذى يجمع بينها أو بين المتأدبين منها فى الإعجاب بهوميروشكسبير وجوته والمعرى والمتنبى ، ثم يجمع بينها فى الإعجاب بمشاهد الطبيعة الجميلة ، و بالفضائل العامة والأفعال المجيدة .

— ٣ —

وهذا الذى ذكر من أقسام الذوق يقتضى القول فى هذه العوامل التى تخالف بين الأذواق فتنوعها أو تجعل ذوق الفرد أو الجماعة يستحيل بين آونة وأخرى ، ولا شك أن الذوق الأدبى ، كالأدب ، والشخصية ، والأخلاق ، ليس صلباً ثابتاً و إنما يخضع لمؤثرات تتوارد عليه ، فتغير من خواصه ، وتجعل له تاريخاً ذا أطوار ، نذكر هنا أهمها :

(١) البيئة ويراد بها هذه الخواص الطبعية والاجتماعية التى تتوافر فى مكان ما ، فتؤثر فيما تحيط به آثاراً حسية ممتازة . وقد فرغ الباحثون من إثبات ذلك ودراسة علله ومظاهره ، ويعنينا هنا ما يتصل بالذوق الأدبى ، فإنه لما كان مزيجاً من العاطفة والعقل والحس كان عند البدو غيره عند أهل الحضر لما بين البيئتين من فروق مادية ومعنوية تطبع عناصر الذوق بطابعها فى كلتيهما هى فروق بين الخشونة والرقة ، و بين الجهالة والمعرفة ، و بين الاضطراب والاستقرار ، و بين البساطة والتعقيـــد ، وهى فروق بين ذوق يطمئن إلى العناصر الخيالية الصحراوية ، و إلى المعانى القريبة الصريحة والفضائل البدوية والحرية التى لاتحد والعبارات الطبعيـــة و بين ذوق لايرضى إلا بصورة الترف ، وعميق المعانى ، وأخلاق المدن ، والاحتياط فى الأداء والصنعة أو التصنع . وتجد ذلك واضحاً عند أهل البادية الذين كانوا يفضلون زهيراً وذا الرمة وعند الـكوفيين الذين

كانوا يؤثرون الأعشى ؛ فزهير بدوى خالص ، شعره صورة للبداوة لفظاً ومعنى وخيالا ومثله ذو الرمه المتبدى . وأما الأعشى فقد تحضر ولان شعره وقال فى اللهو والخمر مما يلائم ذوق الكوفيين الذين تأثروا بالحضارات المختلفة وكان فيهم المجان والمترفون ، فاذا تغيرت البيئة تغير معها الذوق الأدبى منشئاً أو ناقداً ترى ذلك ممثلا فى هذه القصة[1] التى تنسب إلى على بن الجهم لما ورد على المتوكل بغداد وأنشده مادحاً :

أنتَ كالدَّلوِ لا عدمناكَ دَلواً ... مِن كثيرِ العَطايا قليلِ الذُّنوبِ
أنتَ كالكلبِ فى حِفاظِكَ للودّ م وكالتيس فى قِراع الخطوبِ

فهم بعض الحضور بقتله ، فقال الخليفة : خل عنه فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده ، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمناً وقد لانعدم منه شاعراً مجيداً فلما أقام فى الحضر بضع سنين قال الشعر الرقيق المتزن الملائم للذوق الحضرى الجديد والبيئة الطارئة مثل قوله :

عُيون المهابين الرُصافةِ والجِسر ... جَلَبْنَ الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
أعدْنَ لى الشوق القديمَ ولم أكنْ ... سلوتُ ولكنْ زدن جمراً على جمر

وكان لهذه البيئات المختلفة التى احتلها الأدب العربى آثارها المختلفة فى تفاوت الذوق الأدبى وتباين خواصه سواء ذلك فى العصر الواحد أو فى العصور المتتابعة ، فلا شك أن عَدِيّ بن زيد فى الجاهلية يختلف عن زهير وطرفة فى الذوق الأدبى لطول مقام عدى فى الحاضرة فاكتسب رقة وسلالة لاتجدهما عند زميليه فى جزالتهما وبداوتهما الخشنة ، ولا شك أيضاً أن الذوق الأدبى كان على شُطآن دجلة والفرات فى العصر العباسى غيره فى جزيرة العرب ، لما لهذه البيئة الحديثة من خواص تجمعت وطبعت النقاد والأدباء طابعاً حديثاً فى

(١) لهذه القصة عدة روايات ولو كانت مفتعلة لكانت تصويراً إيضاحيا لما نحن بصدده .

تذوق الأدب وفى إنشائه ، ويمكن الإشارة إلى تباين الذوق فى الحالين بما أنكر ناقد على أبى الطيب أن يصف درع عدوه بالحصانة وأسنة أصحابه بالكلال حيث يقول :

تَخطر فيها العوالى ليسَ تنفُذها كأن كل سنان فوقها قلم

فيرد عليه الجرجانى بأن العربى يقول : نجى فلاناً كرم فرسه وإن مذاهبهم المحمودة التى يوصف بها الشجعان هى ترك التحصن فى الحرب وانهم يرون كثرة الاستظهار والاستعداد بالجبن والوقايات ضرباً من الجبن ويعدون كثرة التأهب دليلا على الوهن فالمتنبى حكى الذوق القديم ، والناقد حديث الذوق ، والجرجانى مؤرخ مفسر يقول : إن ذوق المتنبى ظاهرة عربية نبتت فى العصر الجاهلى إذ كان العرب يصفون خيل الأعداء بالسبق والنجاء وينسبون إلى خيولهم التقصير ولا يرون فى ذلك عيباً (١) .

ومما يمكن الاستشهاد به ما حدث به أبو الحسن بن وهب قال : قلت لأبى تمام : أفهم المعتصم بالله من شعرك شيئاً ؟ قال : استعادنى ثلاث مرات : —

وإنّ أسمجَ من تشكو إليه هوًى مَن كان أحسنَ شىء عنده العذلُ

واستحسنه ، ثم قال لابن أبى دؤاد : يا أبا عبد الله ، الطائى بالبصريين أشبه منه بالشاميين (٢) فان ذلك يدل على اختلاف المذهب الشعرى بين هذين المكانين أو اختلاف الذوق الأدبى فى البصرة منه فى الشام .

(٢) الزمان ، ويراد به العوامل المستحدثة التى تتوافر لشعب ما فى فترة من الفترات . ومن المقرر أن تقدم الزمان وانتقال الإنسان من عصر إلى آخر فى درجات الرقى من شأنه أن يغير فى مقوّمات حياته فتزداد معارفه ، وتعمق معانيه ، وترقى فنونه وتلين حياته وتتعدد مشاهداته ، ويتأثر بغيره من الأمم ويظهر على

---

(١) الوساطة ص ٣٢٨ صبيح .

(٢) أخبار أبى تمام ص ٢٦٧ .

ثقافات أجنبية عديدة الجوانب ويتهذب عنصره الإنسانى فيتغير لذلك ذوقه ، وقد يتغير من البساطة إلى التعقيد ومن الخشونة إلى الرقة ، ومن الطبع إلى الصنعة أو التصنع ، و بالجملة يصبح ذوقاً حضرياً بعدما كان بدوياً أو يترقى فى درجات الحضارة فيتشكل بما يتقرر فى عصره من أساليب متبعة ومذاهب مبتكرة و بدائع رائعة ، وهكذا يكون الذوق الأدبى حلقة تاريخية تصور خلاصة الجهود الثقافية والتهذيبية لعصر من عصور التاريخ الأدبى ، تجد أمثلة ذلك واضحة فى استحالة الذوق الأدبى بين العصر الجاهلى وما وليه من العصور إلى اليوم ؛ وعندى أن تاريخ الذوق يوازى تاريخ الأدب والنقد الأدبى ، فهى كلها مظاهر فنية متلازمة ، وعن الذوق يصدر الأدب و إليه مرد نقده ، وعلى حسب ما يكون ، ينشأ الأدب وتقدر عناصره .

جاء الإسلام وأخذ يحيل الحياة الجاهلية إلى حياة حضرية مهذبة ، وأخذ الأدب فى طريق الحضارة لأن ذوق الشعراء والكتاب والخطباء سلك طريق الحياة فلم يحل العصر العباسى حتى كانت الحياة الإسلامية قد تغيرت فى عناصرها الرئيسية وتبعتها الحياة الأدبية ووجد أدبان قديم وحديث ، أو قل وجد ذوق جديد ينعى على الأدب القديم طرائقه فى الأداء وينكر على مقلديه انصرافهم عن الحاضر القريب إلى الماضى الغريب ، وظهر ذلك الجديد فى ألفاظ الأدب وعباراته ، وفى خياله الحضرى ، وفى المعانى المبتكرة العميقة وفى أوزان الشعر وفى بعض فنونه المستحدثة أو التى كثر القول فيها ، وكانت الصنعة البديعية متأثرة بالفن الفارسى الدخيل ، والبحور الصغيرة ملائمة لحياة المرح واللهو ، وأخذ أبو نواس ينعى على الشعراء ذكر الأطلال والدمن ويحل محلها فى ديباجة قصيدة الخمر والبساتين مسايراً الزمن مشتقاً موضوعاته ومعانيه من حياته الواقعية ، وكان بشار وابن هرمة والعتابى همزة وصل بين القديم والجديد

حتى كان أبو تمام وابن المعتز وغيرهما الذين مثلوا الأدب الجديد ، وقام النقد أو الذوق الأدبى يساير هذا الأدب الجديد حتى نرى الأصمعى اللغوى يقدم بشارا على مروان بن أبى حفصته ويعلل ذلك بتجديد بشار وسعة بديعه وعدم ذِلته لمذهب الأوائل ، وكان الذوق القديم قانعاً بطبعية التعبير وقرب المعانى والاستعارات فاذا بالذوق الحديث يعمد إلى الصنعة أو التصنع البديعى ، ويتعمق وراء المعانى ، وتركيب الاستعارات وصرنا نسمع مثل قول أبى تمام :

فالشمسُ طالعة من ذا وقد أفَلت والشمسُ واجبةٌ من ذا ولم تَجب

فى حرصه على المطابقة ، وقول المتنبى مبالغاً إلى درجة الإحالة : —

وضاقت الأرضُ حتى صار هاربُهم إذا رأى غيرَ شىءٍ ظنه رجُلا

أو مبعداً فى الاستعارة إذ جعل للطيب والبَيض واليلَب قلوباً وليست هناك مناسبة ولا سبب ، وذلك حيث يقول :

مسرَّةٌ فى قلوب الطيب مفرِقها وحسرةٌ فى قلوب البيض واليلَبِ

ومن مظاهر استحالة الذوق باستحالة الزمن ما كان فى القرن الثالث من تأثر بعض الأذواق بالناحية العلمية المنطقية كما تراه عند قدامة وابن قتيبة ثم ضعف ذلك ، ورجعة السلطان الأدبى لها فى القرن الرابع ، ولقد رأينا البحترى لسلامة طبعه وفنية ذوقه ، يصيح فى وجه معاصريه من مناطقة القرن الثالث لما حاولوا التشريع للأدباء فيقول :

كلفتمونا حـــدودَ منطقكم فى الشعر يكفى عن صِدقه كَذِبُهْ

ولم يكن ذو القروح يلهَجُ بالمنـــطق ، ما نوعَه وما سببَه[1]

والشعر لمحٌ تكفى إشارته وليس بالهذْر طُوِّلَتْ خُطَبُهْ

واسألنا الآن ، أيطمئن ذوقنا الأدبى إلى البديع أو التكرار أو المبالغة أو

---

(١) ذو القروح : امرؤ القيس .

المدائح أو تقليد السابقين أو فن المقامات أو الأدب الفارغ الذى لايدل على جديد فى التفكير أو التصوير ؟ الحق أنه منذ مات شوقى وحافظ أو قبل ذلك أخذ الشعر العربى يخضع لذوق حديث متأثر بالثقافات الأجنبية ، متصل بخواص هذا العصر الحر المهذب الصريح . كذلك النثر نفى التكلف ، والبديع والتصنع وأخذ يفيض سهلا غزيراً غنياً بالمعانى والموضوعات ظاهر الوحدة حافلا بكل أو بأكثر ما تفيض به الآداب الإنسانية .

(٣) الجنس ، وهو فى أصله ثمرة المكان والزمان ، لأن معنى الجنس أو الأصل الواحد جماعة سكنوا مكاناً واحداً وخضعوا فى حياتهم لعوامله عهوداً طويلة فنشأت فيهم طائفة من العادات والأخلاق وطرق الفهم والادراك مما كونته البيئة فى مواهبهم واستعدادهم على شكل خاص يخالفون فيه سواهم ممن أنجبتهم بيئة أخرى مغايرة ، وكلما تقدم الزمان رسخت فى نفوسهم هذه السمات النفسية والعقلية ، وكانت لها مظاهرها فى الأذواق الأدبية وفى غيرها من ميزات الشعوب المقررة الآن . وإنما أفردنا هذه المسألة بالملاحظة لأن افتراق الطوائف من عهد بعيد ثم قوة آثار الأقاليم التى نزلتها وما نشأ عن ذلك من فروق حسية ومعنوية رسخت واستمرت بالوراثة والتربية ، كل ذلك جعل مسألة الجنس أشبه بالأصول الطبيعية .

والذى يعنينا هنا ماذكر سابقاً من أن لكل جنس طابعه فى الذوق الأدبى يقوم على الخواص المعنوية والجنسية لهذا الجنس وقد لوحظ من مظاهر ذلك[1] ميل اللاتينيين إلى رقة الأسلوب وجماله وإلى حرية الأداء وروعة الخيال وذلك فى الآداب الفرنسية والايطالية ثم ميل الجرمانيين إلى الجزالة والقوة والميل إلى التجديد . وذلك واضح فى الأدب العربى لما تناولته الأجناس المختلفة فظهرت فيه طبائعها المختلفة وأذواقها المتباينة إنشاء ونقداً : ظهر الذوق الفارسى فى بشار

(١) راجع : مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف ، ص ١٣٤ .

وأبى نواس وابن المقفع وسواهم وظهر الذوق الرومى فى ابن الرومى والمصرى فى البهاء زهير . ويستأنس لذلك بحكاية بشار بن برد لما قال بيته المشهور :

بكّراً صاحِبَيَّ قبلَ الهجيرِ إن ذاك النجاحَ فى التبكيرِ

قال له خلف الأحمر : لو قلت يا أبا معاذ مكان ـ إن ذاك النجاح ـ بكّرا فالنجاح كان أحسن فأجابه بشار : إنما بنيتُها أعرابيةً وحشية فقلت إن ذاك النجاح كما يقول الأعراب البدويون ولو قلت بكّرا فالنجاح ، كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة[١] ، هذا ، وكل من الناقد والمنقود مولى أعجمى . أما البهاء زهير فقد كان شعره حكاية الأسلوب المصرى فى جده وهزله وفى روحه ومعانيه فتسمعه فكأنك تسمع الشعب القاهرى يتحدث ويتحاور[٢] وابن الرومى فى تسلسله واستقصائه وطول نفسه مثال الذوق الرومى ، وهذا أبو نُواس يصور الخمر فارسية فى بيئتها أو فى بنى جنسه فيحسن التصوير حتى يعجب الجاحظ ويتحدى ابن الأثير ، وذلك حيث يقال أبو نُواس : —

ودارِ ندامَى عطّلوها وأدلَجوا بها أثرٌ منهم جَديد ودارِسُ
مساحِبُ من جرّ الزقاق على الثرى وأضغاثُ ريحانٍ جَنىٌّ ويابسُ
حبَستُ بها صَحْبى فجدّدتُ عهدَهم وإنّى على أمثالِ تلكَ لحابِس
تُدار علينا الراح فى عَسْجدِيَّة حَبَتْها بأنواع التصاويرِ فارسُ
قَرارتُها كِسرى وفى جنَباتها مَهَا تدّريها بالقِسِىّ الفوارسُ
فللخمرِ ما ذُرّت عليه جُيوبُها وللماءِ ما دارتْ عليهِ القلانس

ومهما يكن من أسباب جمال هذه الأبيات فانها من غير شك صورة فارسية تَعَدُّ صدى لما غلب على خيال الشاعر أو على ذوقه ، وكان أبو نواس فى كثير من

(١) الايضاح للخطيب القزوينى ، ص ١٧ ، طبعة صبيح .
(٢) أحمد الشايب : البهاء زهير ص ١ .

شعره يَدُلُّ على جنسه كما كان ابن المقفع أو عبد الحميد أو غيرهما فارسى النثر العربى أو الإسلامى .

ولمناسبة ما ، نذكر هنا اختلاف الرجال من النساء فى الذوق الأدبى ، فمن يقرأ شعر الخنساء وليلى الأخيلية ويقرنه بشعر الرجال فى عصرهما وأقطارهما يجد فرقاً واضحاً ، فالنساء أرق أسلوباً ، وأقرب معانى ، وأبسط خيالا ، ولعل شعر الخنساء لا يعدو أن يكون نوحاً على الموتى الهالكين . وهذا الذى ذكر عن الجنس قديماً يمكن ملاحظته فى عصرنا هذا ، فالمصريين ذوق يختلف من ذوق الشاميين أو المغاربة أو العراقيين وقد مر شىء من ذلك .

(٤) التربية ، وهى تتناول آثار الأسرة والتعليم ، والتنشئة الخاصة ، فقد تجد جماعة من جنس واحد وبيئة واحدة وزمان واحد ، وهم مع ذلك متباينو الأذواق بسبب ما اختلفوا فى الثقافة والدراسة والتهذيب الذى ظفر به كل منهم ، والحياة الخاصة من لين وخشونة وفضائل أو رذائل ، وصحب وعشير ، ووقوف عند تقاليد الشعب أو اتصال بنظم أجنبية إلى نحو ذلك مما نشهد مثله قديماً وحديثاً . فان بيننا الآن من درس فى المعاهد الدينية الخالصة فكان ذوقه نحوياً دينياً يرتاح إلى أساليب الفقه والنحو والأصول والجدل ، ومن درس فى المعاهد المدنية فكان ذوقه طريفاً يحب السهولة والجمال وأساليب الصحف أو الكتب المنسقة الخاضعة للمناهج العلمية فى الموضوع والشكل ، ثم من أخذ من كل طرفاً فذوقه يجمع بين جلال القديم وجمال الحديث . وهناك من غلبت عليه النزعة الانجليزية أو الفرنسية فكان ذوقه أقبل لآداب هذه الأمم دون الأدب العربى وهكذا .

كان شوقى وعبد المطلب وحافظ ابراهيم واسماعيل صبرى يعيشون معاً ومع ذلك فلكل منهم ذوق فى أدبه يخالف به جميع الآخرين ، وبيننا الآن كتاب تختلف أذواقهم وأساليبهم باختلاف التربية الشرقية والغربية ، تربية الأزهر أو دار العلوم

أو الجامعة أو التربية الانجليزية أو الفرنسية وإذا صعدنا فى التاريخ رأينا نحو ذلك فقد قيل لابن الرومى[١] لم لاتشبه كتشبيهات ابن المعتز؟ فقال مثل ماذا؟ فقيل كقوله فى الهلال :

أنظر إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلته حمولةٌ من عنبرِ

فقال ثم ماذا؟ فقيل له قوله فى الآزريون . وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود :

كأن آزريونَها غِبَّ سماءٍ هاميهْ
مَداهنٌ من ذَهبٍ فيها بقايا غالِيه

فصاح ابن الرومى : واغوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ما عون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أىّ أصف ، ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولى من الناس ، فهل لأحد مثل قولى قط فى قوس الغمام : —

وقد نشرتْ أيدى الجنوب مَطارِفاً من الجوّدُ كنّاً والحواشى على الأرض
يطرِّزها قوسُ السحابِ بأخضرٍ على أحمرٍ فى أصفرٍ إثرَ مُبيضِّ
كأذيال خَودٍ أقبلتْ فى غلائلٍ مصبَّغةٍ ، والبعضُ أقصرُ مِنْ بعضِ

وكان زهير بن أبى سلمى متصلا ببشامةَ بنِ الغدير فأثر ذلك فى شعره المحكم المتزن ، والأمر بالمثل بين الأعشى والمُسيَّب بن علَس . والشريف الرضى ومهيار الديلمى .

وإذا وقفنا عند النقد بالذات وجدنا فى القرن الثالث الهجرى صنوفاً من النقاد أربعة لكل صنف ذهنيته أو ذوقه الخاص فى نقد الأدب وقدره : ذهنية اللغويين يمثلها أبو سعيد السكرى رواية البصريين فى عهده وأبو العباس ثعلب

---

(١) اختلاف الجنس هنا لا يمنع الاستشهاد بهذه القصة إذ كانت مثلا واضحاً لأثر البيئة الخاصة .

أحد اللغويين والنحاة الكوفيين ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد البصرى وعنايتهم كانت ببناء الألفاظ والتراكيب وتحديد معناها والاتجاه نحو القدماء فى فنون الأدب والبيان ، وذهنية الأدباء الذين عنوا بالأدب الحديث مع القديم ، حفلوا بالأول وتبينوا عناصره وخواصه ، يمثلهم عبد الله بن المعتز ، وكان هؤلاء يفضلون الجديد المعتدل وعدم الإسراف فى الصنعة والبديع والإحالة ، والثالثة ذهنية أو ذوق الذين أخذوا بنصيب معتدل من المعارف الأجنبية كابن قتيبة العالم الأديب والجاحظ الكاتب الفذ ، وذوق هذه الطائفة يميل إلى التنظيم والتقسيم ويتأثر بالعلم ويعنى ببيان الصلة بين الشعر والشاعر ، والرابعة ذهنية هؤلاء الذين ظفروا بأكبر نصيب من الثقافة اليونانية كقدامة بن جعفر الذى حاول أن يفرض على الأدب العربى مسائل الفلسفة والمنطق ويقيسه بمقياس علمى دقيق غافلا عن قيمة الشخصية ومكانة الذوق السليم إلا قليلا كما يحاول ذلك بعض المعاصرين[١] .

(٥) الشخصية الفردية أو المزاج الخاص — وهذا العامل أخص المؤثرات فى الذوق وألصقها بالناقد وكثيراً ما ينتهى إليه الرأى فى باب النقد الأدبى ، ويرى مكدوجل : أن المزاج هو مجموعة الآثار التى تحدثها فى الحياة العقلية التغيرات الغذائية والكيمياوية التى تحدث باستمرار فى أنسجة الجسم ، ويقول شاند : إن المزاج هو الشخصية الفطرية الطبعية أو هو ذلك العنصر من عناصر الحياة العقلية الذى يختلف باختلاف الأفراد من الناحية الوجدانية وكذلك من الناحية النزوعية على ما يظهر[٢] ويكاد يكون من المتفق عليه أن للأمزجة آثاراً بينة فى الشخصية وأنها تختلف باختلاف الأفراد وأنها تحدد وجهة نظر الفرد نحو

---

(١) طه ابراهيم تاريخ النقد الأدبى عند العرب ، ص ١١٥ .

(٢) فى علم النفس ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ .

بيئته وتؤثر فى سلوكه إلى حد بعيد جداً . ويعنينا هنا مايلاحظ من تفاؤل صاحب المزاج الدموى أو تشاؤم السوداوى وما لنحو ذلك من أثر فى الذوق الأدبى إنشاء ونقداً ، فهذا ابن الرومى كان متطيراً حاد المزاج مضطرب به ضعيف الأعصاب مريض الطبع ، أنشده بعضهم :

ولما رأيتُ الدهرَ يُؤذن صرفُه ... بتفريقِ ما بينى وبينَ الحبائبِ
روجعتُ إلى نفسى فوطّنتُها على ... ركوبِ جميلِ الصبر عند النوائبِ
ومن صَحبَ الدنيا على جَور حكمها ... فأيامُه محفوفةٌ بالمصائب
فخُذ خِلسة من كلِّ يوم تعيشُه ... وكن حذِراً من كامناتِ العواقبِ
ودع عنك ذكرَ الفألِ والزجرِ واطّرح ... تَطيُّرَ جارٍ أو تفاؤلَ صاحبِ

فبقى ابن الرومى مبهوتاً ينظر إليه ثم تبين الحاضرون أنه شغل قلبه بحفظ هذه الأبيات . وطبعى أن يعنى صاحب هذا المزاج بمثل هذه الأبيات ، وابن الرومى هو القائل :

لِما تؤذِنُ الدنيا بِه من صُروفها ... يكونُ بكاء الطفلِ ساعةَ يولدُ
وإلاَّ فما يبكيهِ منها وإنها ... لأرحبُ مما كان فيه وأرغدُ
إذا أبصر الدنيا استهلَّ كأنهُ ... بما سوف يلقَى من أذاها مُهدَّدُ

فقد خلع على الدنيا من مزاجه الحزين المتشائم وأبكى الطفل حين الولادة من كوارثها المرقوبة ، ومثله فى ذلك المعرى ، فى حين أن شاعراً كالبحترى يخلع على الربيع بهجة من نفسه فتشيع فيه الحياة والجمال :

أتاكَ الربيعُ الطلقُ يختالُ ضاحكا ... من الحُسنِ حتّى كاد أن يتكلَّما
فمَن شجرٍ ردّ الربيعُ لباسه ... عليه كما نشَّرتَ وشياً مُنمنَما
ورقّ نسيمُ الريحِ حتى حسبتُه ... يجيء بأنفاسِ الأحبّة نُعَّما

ويمكن أن يدخل فى ذلك هذه الحالات النفسية التى تستأثر ببعض

النفوس فتحملها على إنشاء أو استحسان فن خاص من الشعر أو النثر ، فالعاشق يؤثر النسيب والقوى يفضل الحماسة ، والزاهد يحب أبا العتاهية ، والصوفى ابنَ الفارض ، والحكيمُ يفضل المتنبي والفيلسوف يعكف على المعرى ، وبالجملة من غلبت عليه نزعة عقلية آثار الأدب الثقافى ، ومن قوى وجدانه مال إلى أدب القوة .

— ٤ —

وإذا كان الذوق الأدبى من المرونة بحيث يقبل التأثير والتهذيب ، فهل يمكن تكوين الذوق السليم ، وكيف يكون ذلك ؟

قدمنا أن الذوق فى أصله هبة طبعية لكن رقية وتهذيبه إنما يكون بالتربية الصحيحة ، ونقول هنا : إن تكوين الذوق بمعنى خلقه فى نفوس لم تظفر به شيء عسير ولا بد لتكوين الذوق وتهذيبه من وجود أساس بالقوة فى النفوس يمكن تحويله إلى فعل ويقول لاسل آبر كرومبى : نستطيع إذن ، أن نقول : إن دولة الأدب تحتلها ملكات ثلاثة : الأولى ملكة الانتاج (أو الانشاء) والثانية ملكة التذوق والثالثة ملكة النقد . وأهم ما تمتاز به ملكة النقد أنها يمكن أن أن تكتسب — مع أنه من الجائز أن يكون النقد أحياناً غريزيا — فالناقد لمادة يكون مدركا للخطة التى يتبعها فى نقده ، وهذه الخطة تعتمد على قواعد منطقية خاصة قابلة لأن ترتب بحيث يتألف منها نظام خاص ومن الممكن دراستها وتطبيقها فى دقة وعناية ، ولكن ليس هناك قواعد ترشدنا إلى كيفية ابتكار الأدب ولا إلى كيفية الاستمتاع به ، ولهذا لم يكن من وظيفة النقد أن يشرح الحالة الفكرية التى تبعث على الابتكار الأدبى ، ولا الحالة الفكرية التى تساعد على الاستمتاع بالأدب ، والنقد عاجزاً تماما عن ايجاد هاتين الملكتين عند الناس إذا لم يكن لهما وجود من قبل ، فهو

بإذن ، يفترض وجودهما افتراضاً ، أما الذين لا يقدرون على ابتكار الأدب ولا على الاستمتاع به فانهم لن يجدوا للنقد معنى ولن يتذوقوا له طعما ، فالنقد إذاً ، يفترض أولا أن الأدب موجود ثم يمضى فى البحث عن طبيعته وفى شرحها وقدرها ، والخلاصة أنه يهدينا إلى تكوين رأى صحيح عنها[١] .

فاذا كانت ملكتا الانشاء والتذوق طبعيتين و إذا كان النقد عاجزاً تماما عن ايجادهما فان معنى ذلك أن الذوق الأدبى طبعى فى أصله ، وأن النقد يتكىء عليه مع قوانينه المنطقية الخاصة ، لذلك كانت الدراسة الأدبية عند غير الموهوبين قليلة الفائدة فى حين أنها تبلغ بسواهم درجة النبوغ . ويقول ابن الأثير : « اعلم أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم . . . فان الدربة والادمان أجدى عليك نفعاً وأهدى بصراً وسمعاً وهما يريانك الخبر عياناً ويجعلان عسرك من القول إمكاناً وكل جارحة منك قلباً ولساناً فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك واستنبط بادمانك ما أخطاك وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفاً ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلباً فان حمل النضال غير مباشرة النضال »[٢] .

والكلام إذاً ، إنما يقف عند من وهبوا مقداراً صالحاً من جمال الذوق وسلامة الطبع فان التربية الأدبية تنفعهم من ناحتين . الأولى — ترقية الذوق وطبعه أجمل طبع وأقواه ، والثانية — قدرتهم على تعليل مافى الأدب من صفات البراعة والحسن أو عكس ذلك . وأما من سواهم فيعمدون إلى الدراسات النظرية أو البلاغية لعلها ترشدهم بعض الشىء[٣] ولكن كيف نكون هذا الذوق السليم ؟ .

---

(١) قواعد النقد الأدبى ، ترجمة محمد عوض ، ص ٤ .

(٢) المثل السائر ، ص ٣ .

(٣) راجع سر الفصاحة ، ص ٨٨ .

يكون ذلك بوسيلتين : سلبية و إيجابية . والأولى تكون بتجنب الأدب الردىء ، ومجانبة المشاهد الفنية السقيمة ، والبعدعن النوادى والأشخاص والبيئات حيث تدور الأحاديث البذيئة وتبدو الخلال الوضيعة لئلا يجرح الذوق وتناله العدوى الخبيثة . والثانية يراد بهـا العوامل التى يلجأ إليها الانسان لتنمية ذوقه وتصفيته ليكون صادق الادراك دقيق الحس سديد الحـكم . وهذه الوسيلة الثانية درجتان : عامة وخاصة ، فالعامة تكون بحسن الاتصال بالفنون الرفيعة فهماوتذوقا ، وبالمشاهد الرائعة طبيعية أو صناعية ، وبالمرانة على حسن الهندام ، والنظام ، والفضائل الخلقية والاجتماعية ، والعناية بالثقافة الصحيحة ، فلذلك كله يبعث فى النفس الجمال ويعد الذوق لقبول الأدب الرفيع وتذوقه ومحاكاته والنفور من كل قبيح مرذول .

وأما الدرجة الخاصة فهى الاتصال المباشر أو الامتزاج التام بخير مافى الأدب شعر ونثر ، وقراءة خالقة يتوافر فيها فهم الأدب ، وتحليله إلى عناصره ، وتبين الصلات بينها ، وما فى كل منها من أسباب الصواب والقوة والجمال ، وتفهم روح الأديب وشخصيته وعقله ليفيد القارىء من ذلك نفساً مهذبة تفيض على نفسه جمالا وعلى ذوقه صفاء ، ويحسن أن يعرف شيئاً عن حياة الأديب الذى يقرؤه وعن بيئته ليستطيع التفـاهم معه والدخول إلى قلبه سريعاً ، وهـذا معناه أن الذوق الأدبى يربى ويرقى بالنقد الأدبى ذاته ، وأى غرابة فى هذا ؟ أليس كل منهما عوناً للآخر يقول الأستاذ أحمد ضيف : « يتكون الذوق السليم بالقراءة والدرس ويكتسب شيئاً من اللين والمرونة وقبول الجديد لأن الذوق خلق من الأخـلاق القابلة للتهذيب والتنقيح بالقراءة والفهم والدرس بحيث يكون ذوقا مبنياً على التجربة مما قرأ الانسان وفهم من العلوم والفنون ، فالذوق الصحيح ينضج ويتربى بالنقد ، والنقد يتهذب بالذوق لأنه معين ومسـاعد على الفهم وتفضيل الشىء على الشىء

فلو أن إنسانا خلا من ذلك كان حب الاستطلاع لديه ناقصاً لأنه إن لم يكن فى نفسه ذوق ثابت لنوع من الأنواع مبنى على التجربة ولم توجد فى نفسه ملكه التفضيل والتفرقة بين الاشياء كان سواء عليه أقرأ هذا أم هذا ، وخفى عليه كثير من الميزات ، وكانت الفائدة من القراء لديه أقل مما لو كان له ميل خاص وربما خرج من الكتاب الذى يقرأ بدون فائدة ولا أثر » . (١) ونحو ذلك ما قاله ابن خلدون عن ملكة الذوق البلاغى : « فاذا اتصلت مقاماته — أى المتكلم بلسان العرب — بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التى للعرب ، وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر إلا بما استفاده من حصول هذه الملكه فان الملكات إذا استقرت ورسخت فى محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل . ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة فى كتب فليس من تحصيل الملكة فى شىء إنما حصل أحكامها كما عرفت ، وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتبار والتكرار لكلام العرب» (٢)

وعلماء النفس يشيرون بتربية الأذواق من نواح ثلاثة : الوجدان والإدراك والنزوع (٣) وذلك بمباشرة الفنون الجميلة ، والآثار الأدبية الممتازة لتكوين مقاييس صادقة للجمال والفضائل ثم بمعرفة أسباب الجمال وتحليله إلى عناصر ونقده نقداً سليما ، وأخيرا بالمرانة على تقليد الجميل لأن من يحسن صوغ الشعر يستطيع أن يتذوق ما فى شعر غيره من رقة وبراعة وعلى أن ينقده ويتبين ما فيه من نقص وكمال . وأما عن الكتب التى تقرأ فمن الخير الاستماع إلى مشورة الثقات من رجال النقد الأدبى فانهم أوثق الناس صلة بالأدب ، وأعرفهم بخيره وأبعده أثرا فى تقويم

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ٩٣ .

(٢) المقدمة ، ص ٦٤٢ وراجع سر الفصاحة ، ص ٨٩ .

(٣) حامد عبد القادر : فى علم النفس ، ج ٣ ، ص ٣٥٤ .

الذوق الأدبى . وعندى أنه لابد من الرجوع دائما إلى الأدب القديم والتملؤ بنصوصه الجلية الجزلة فان الحديث وحده لايكفى وربما هبط بمستوى الأداء وهذا ما نعيبه على الناشئين بيننا الآن فى اعتمادهم على الصحف والمجلات العصرية حتى ضعف أسلوبهم ومال الابتذال .

وليحذر المتأدبون اطمئنانهم إلى هذه الدراسات النظرية والى قواعد النحو والبيان والنقد فتلك مسائل نظرية تفيد العقل معرفة ، ولا تكسب الذوق مرانة وابتكارا ، وكثير من الأقدمين والمحدثين كانوا علماء باللغة والنحو والبلاغة ولكن لعدم المرانة الفنية كانوا يعجزون عن تحبير رسالة أو تصوير ما فى نفوسهم من أفكار . شكا ذلك فى نفسه أبو العباس المبرد وذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة فيجعل المعنى الذى قصده نصب عينيه ثم لايجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا بلسان ، فى حين أن المكتاب لظرفهم بهذه الناحية التطبيقية « أرق الناس فى الشعر طبعاً وأملحهم تصنيفاً وأحلاهم ألفاظا وألطفهم معانى وأقدرهم على التصرف وأبعدهم من التكلف »[1] .

— ٥ —

وأخيرا ما قيمة هذا الذوق الأدبى ؟ وماذا يفيد ؟

ولقد تبين لنا مما مضى أن الذوق السليم عدة الناقد ووسيلته الأولى ، فإليه يرجع إدراك جمال الأدب ، والشعور بما فيه من نقص ، و إليه نلجأ فى تعليل ذلك وتفسيره ، و به نستعين فى اقتراح أحسن الوسائل لتحقيق الخواص الأدبية المؤثرة والذوق ينفع فى إنشاء الأدب أيضاً فان ما ينشئه الكاتب أو الشاعر ثمرة ذوقه الأدبى وصورته الدقيقة ، كذلك اختيار النصوص الأدبية متأثر بالذوق خاضع

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ص ٨٤ .

له ، وذو الذوق الجميل يختار الأدب الجميل . و يقول ابن خلدون : «فملكة البلاغة فى اللسان تهدى البليغ إلى جودة النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب فى لغتهم ونظم كلامهم ، ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقة عليه لسانه لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخه عنده ، و إذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب و بلاغتهم فى نظم الكلام أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم . . . ور بما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ؛ فان ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء ، وهذا أمر وجدانى حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم »[١] ومن المقرر فى علم النفس أن صاحب الذوق السديد يقدر أولا على قدر الآثار الفنية والأدبية و إدراك ما فى هذا العالم من جمال وتناسب وانسجام وثانياً على الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعى والصناعى والشعور باللذة والسرور عند إدراكه واجتلائه وثالثاً على محاكاة ذلك الجمال الخارجى فى الأعمال والأقوال والأفكار ، فالذوق السليم منبع السرور واللذة ويعد من الدافع القوية إلى تهذيب الأفكار والسمو بها وتنسيق الألفاظ وجعلها أخاذة بالألباب حسنة الوقع على النفس بريئة من الاضطراب ، على أنه بعد ذلك ذو أثر خطير فى الحياة الخلقية والفكرية والاجتماعية و بعث التفاؤل والألفة وتحقيق السعادة فى الحياة[٢] .

هذا الذوق الأدبى الذى أجملنا القول فى عناصره وعوامله المتباينة يبلغ به الأمر إلى أن يصير ملكة تسبق العقل فى الأحكام ، وتؤدى عملها النقدى بطريقة تكاد تكون عادية أو آلية ، فتصدر عنه الملاحظات والفصل فى المسائل الفنية دون أن يعرف صاحبه لشىء من ذلك علة ووجها . إنما هى صدى لما بعثته الأشياء

(١) المقدمة ، ص ٦٤٣ . (٢) فى علم النفس ، ج ٣ ص ٣٤٧ ، ٣٥٢ .

فى نفس الناقد من تأثير ، ويظهر أن علة ذلك ما تنتهى إليه نفسية الناقد من تعقيد لم يشرح أو من عبقرية فى هذه الناحيـــة سمت على القواعد الوضعية والقوانين العلمية .

وقد يكون من الخير أن نورد عقب هذا الكلام ما قاله ابن سلام فى فاتحة كتابه طبقات الشعراء : « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا حس ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها[١] ومنه البصر بغريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده وتشابه لونه ومسه وذرعه حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذى خرج منه ، وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون جيدة الشطب[٢] نقية الثغر حسنة العين والأنف ، جيدة النهود ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر[٣] فتكون بهذه الصفة بمائة دينار وبمائتى دينار وتكون أخرى بألف وأكثر ، لا يجد واصفها مزيداً على هذه الصفة » .

---

(١) الجهبذة الناقد الخبير ، الطراز علم الثوب . البهرج درهم رديء الفضة . الزائف المردود لغش فيه . الستوق الدرهم الزائف . المفرغ الحالى أو من قولهم حلقة مفرغة أى مصمتة .

(٢) الشطب الحسن الخلق ، والشطبة الجارية الطويلة الحسنة .

(٣) الشعر الورد : الطويل المسترسل .

الفصل الثالث

فى النقـــد والناقد

— ١ —

إذا كان النقد ضرورة من ضرورات الحياة لاتستغنى عنها ما دامت تتطلب التقـدم ومحاولة البراءة من النقص والتخلف ، فمن الطبيعى أن يتناول النقد جميع مقوماتها العلمية والفنية والاجتماعية والسياسية لعله يصلح ما فسد ، ويعين على الترقى ، ويهدى الباحثين والعاملين إلى أهدى السبل وأسمى الغايات . لهذا اختلف النقد أو تعدد بتعدد نواحى الحياة ، فمنه النقد السياسى الذى يتخذ مقاييسه من أصول الحـكم والقوانين الدولية ، والبراعة التى تفيد الدولة وتدعم سلطانها على الرعية وبين الدول جميعاً . ومنه النقد الاجتماعى الذى يعتمد فى كيانه على تقاليـــد الأمة ، وما ييسر عليها حياتها ، ويحمى أفرادها وأسرها وأخلاقها من الفساد والتدهور وعلى جميع مايرضى الكافة ويجعل الأفراد مهذبين صالحين لمسايرة التقدم والنجاح . وهناك النقد العلمى المتصل بالطبيعة والكيمياء والرياضيات ، ونحوها وهو خاضع لهذه المناهج النظرية والتطبيقية التى وضعت لـكل علم وإن كانت كلها مشتركة فى صحة المقدمات وسلامة التجارب ودقة الاستنباط والتجرد من الأشياء الذاتية إذ كانت المسائل العلمية ظاهرة عقلية موضوعية تتناول الحيـاة كما هى فى الواقع دون أن يكون للذوق أو المزاج فيها نصيب .

وهناك النقد الفنى ، وهو كذلك خاضع لأصول عامة تصلح للفنون الرفيعة

كلها من رسم وتصوير وأدب وموسيقا ونقش ، من ذلك صدق التعبير ، وقوة التأثير ، وجمال الخيال ومراعاة التناسب . ومع ذلك فلكل فن منها مقاييسه النقدية الخاصة تبعاً لطبيعته ، ووسيلته فى الأداء ، وهى متأثرة حتما بالذاتية أى بهذا الذوق الفنى لكل ناقد . ولسنا نريد هنا التورط فى أصول النقد العلمى ولا الفنى وإنما أشرنا إليها لنتفرع منها إلى النقد الأدبى خاصة إذ كان نوعاً من أنواع النقد ، يكون فنياً أو مزيجاً من العلم والفن كما يمر تحقيق القول فى ذلك .

والنقد الأدبى خاص بالأدب . وإذا كنا نفهمه بالمعنى العام أى تفسير الأدب وإيضاحه فنستطيع أن نعد من أنواعه ما يلى :

أولا — النقد التاريخى الذى يشرح الصلة بين الأدب والتاريخ فيتخذ من حوادث التاريخ السياسى والاجتماعى وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره وخواصه وقد تقدم الكلام فى ذلك فلا نعيده هنا (١) .

ثانياً — النقد الشخصى وهو الذى يتخذ من حياة الأديب وسيرته وسيلة لفهم آثاره وفنونه وخواصه الغالبة عليه ، فان الأدب صادر عنه مباشرة ليسهل بذلك شرحه وتعليل أوصافه ، وهذا أيضاً قد سبق ذكره (٢) .

ثالثاً — النقد الفنى ، وقد قلنا من قبل إنه أخص الأنواع وأولاها بمن يريد فهم طبيعية الأدب وبيان عناصره ، وأسباب جماله وقوته ، ورسم السبيل الصالحة للقراءة والإنشاء وهو عندى أحق الأسماء بهذه التسمية ، فهو النقد حقاً وما سواه من الطريقة التاريخية أو الشخصية تفسير ، وإن كان — بلا شك — يعين على صحة النقد الفنى وعلى سلامة أحكامه من الغموض والضلال .

وإذا رحنا نستقصى مظاهر النقد الأدبى فى تاريخ الأدب العربى وجدناها

---

(١) و (٢) راجع الفصل الثامن من الباب الأول من هذا الكتاب ، و (فى الأدب الجاهلى) ص ٣٣ الطبعة الثالثة .

كثيرة منوعة فنقد لفظى ، وآخر معنوى ، وثالث موضوعى ، ومن اللفظى ماهو لغوى أو نحوى أو عروضى أو بلاغى ، ومن المعنوى ما يتصل بابتكار المعانى أو تعقمها أو توليدها أو أخذها ثم ما يتصـــل بالأخيلة وطرق تأليفها لتصوير العاطفة . ثم العاطفة الصادقة والمصطنعة . ومن الموضوعى ما يليق بكل مقام من المقال أو الفن الأدبى الخاص حتى غلوا وحاولوا أن يقصروا الشعر على فنون دون النثر . ويمكنك الرجوع إلى ذلك كله فى الموشح للمرزبانى ، والصناعتين للعسكرى والبيان والتبيين للجاحظ ، والموازنة للآمدى ، والوساطة للجرجانى ودلائل الأعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر ، ولن تتسع هذه الصفحات لايراد الأمثلة لذلك فارجع اليها فى مظانها المذكورة ، على أن كثيرا منها يمر بك فى تضاعيف هذه الفصول . وستكون عنايتنا هنا موجهة فى الغالب إلى الناحية البيانية التى تتجافى عن الأخطاء اللغوية والنحوية والعروضية ، فلذلك علوم مقررة يسهل استخدامها فى تعرف هذه الاخطاء اللفظية والجزئية .

— ٢ —

وفى عصرنا الحديث نشهد درجتين للنقد الأدبى أو نوعين من أنواعه : إحداهما الدرجة السريعة وتتناول الآثار الأدبية — أو الفنية — التى تقدم كل يوم إلى الصحف والمجلات ، ونقد هذه الدرجة نوع من الاعلان أو الوصف يعتمد على ملاحظات سريعة تعين القارىء عل معرفة ما يصلح له من الكتب التى تصدرها المطبعة تباعاً ، ومع ذلك فيجب ألا يخلو هذا النقد من الجد وصحة الحكم والانصاف وترك المجاملة لئـــلا يضل القراء ويذهب بمكانة الصحفى الأديب .

والثانية أسمى من الأولى وأبقى إذا كانت عاملا من عوامل الرقى ونشر الثقافة العامة بين القراء . وتظهر فى المجلات المحترمة أو الكتب وتعتمد على

الدراسة العميقة والخيال الخصب ، والتفكير الواضح السديد ، والموازنة الشاملة ، وهى تنتهى فى الغالب بعرض خلاصة كافية للآثار المنقودة أو (باكتمالِ) ماينقصها ، أو بفتح آفاق جديدة للبحث متصلة بموضوع الكتاب[1] ويمكن هنا إجمال الخطا التى تندرج فيها هذه الطريقة حتى تصل غايتها إلى أن نفصلها فى حينها إن شاء الله .

فعلى الناقد ألا يهمل هذه الجزئيات اللغوية والنحوية التى تعين على فهم عقل الأديب وتاريخ أفكاره أثناء كتابه أو مقاله أو قصيدته أو قصته وما انتهت إليه من نتائج وآراء ومذاهب . وذلك يقتضيه أولا تفهم المعانى الحقيقية التى تدل عليها العبارات بعناصرها الأصلية التى تسمى عمدة كالمبتدا والخبر والفعل والفاعل . أو بعناصرها الثانوية التى تسمى فضله كالحال والمفاعيل وبعض المتعلقات .

وثانياً — فهم المعانى المجازية أو التضمنية والالتزامية التى تؤديها العبارة بطريق الاستعارة والكناية أو تشير إليها إذا كانت موجزة تكتفى بالاشارة والتلميح

وثالثاً — قيمة كل جملة فى إيضاح المعانى ، إذ كان بعض الجمل أساسياً يدل على أصل المعنى والبعض ايضاح أو تكرار وهذه الأخطاء — على جفائها — تعد أساساً لازماً للدرجة السامية من درجات النقد الأدبى . على أن الناقد ما دام يصل بين هذه الملاحظات النحوية و بين المعانى والأفكار يشعر بخفة بحثه ومتعته ، فإذا انتهى من ذلك واجه عمله الحقيقى الخطير الذى يتجلى فى تعرف الأثر المنقود : كيف ظفر بخواصه اللفظية والمعنوية ، وعلى أى شىء يدل مما له صلة بعقل كاتبه وعواطفه وأخيلته ومزاجه ومواهبه و بيئته ومعارفه ، فإذا بنا نحيا مع

---

(١) Genung : The working Principles of rhetoric. P. 591.

الأديب ونرى بعينه ونسمع بأذنه ، ونخضع أنفسنا لميوله ونظرياته وروحه ، وننتقل من فهمه إلى فهم عصره و بيئته كلها[١] ، ثم نحسن الحكم والتقدير .

— ٣ —

والنقد الأدبى أثر الناقد ووظيفته ، و إذا كنا قد حاولنا تعرف النقد الأدبى ومقدماته فيما مضى فمن الحق علينا ذكر الناقد منشىء هذا النقد ، ومصدره المباشر ، وطابعه بطابعه . والباحثون يذكرون للناقد شروطاً كثيرة تخيل للقارىء أنها لا تحصى أو لا تضبط وقد ينفرد كل بذكر طائفة منها محاولا أن يلائم بينها و بين خطته فى التأليف[٢] ور بما كان من الحق أن نرد هذه الصفات إلى ثلاثة هى من ناحية ثانية الأسس العلمية المباشره لفن النقد الأدبى[٣] .

(١) الذكاء Intelligence أو الخبرة ، وذلك أن يكون الناقد ذا معرفة واسعة بالفن الأدبى الذى ينقده ثم بما يلابسه من فنون وموضوعات أخرى ، لأن النقد الأدبى لا تتضح قضاياه ولا تستقيم أحكامه حتى يعتمد على مقاييسه الخاصة ثم يستعين — بالموازنة — بمقاييس الفنون الأخرى . وهذا أدعى إلى الفهم وحسن التعليل ، وقوة الإيضاح ، وأخيراً ، إلى صحة الحكم والتقدير . وقد مر بك أن للعلوم مناهجها الدراسية والنقدية وللفنون مقاييسها أيضاً ، فاذا تقدمنا إلى الأدب وجده رأينا له صفاته العامة من صحة الأفكار ، وصدق العواطف ، وجمال التعبير ثم رأينا للشعر صفته الرئيسية التى تتلخص فى الملائمه

---

(١) نفس المرجع ، ص ٥٧٩ .

(٢) راجع فى ذلك مقدمة أحمد ضيف ص ٩ والموازنة لزكى مبارك ص ٢ — ٥٨ والمنهل للحمصى ، ج ١ ، ص ١٣٤ و ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٣) راجع أصول البلاغة تأليف Genung ، ص ٥٩٣ ، وأصول النقد الأدبى تأليف Richards ص ١١٤ .

بين لغته الموسيقية ومعانيه القوية ليحقق التأثير المراد ، ثم الخطابة التى تقوم على قوتى الاقناع والتأثير ، وتقتضى عبارات منوعة تلائم غايتها ، والمقالة التى تعنى بالاقناع والإفادة قبل كل شىء وهكذا لكل فن أدبى مقياسه الخاص الذى يجب أن يلم به الناقد حتى لا يخلط بين الفنون فيضل فى التقدير . ومن نواحى هذه الخبرة أن يكون الناقد مطلعاً على عصر الأديب ومكانه وسيرته ، وقد بينا أثر ذلك كله فى الأدب ، ولا مناص من تعرف ذلك لفهم الأدب ، وتعليل ظواهره ، وسلامة النقد من الظلم والاعتساف . . . لأننا بذلك نكون قد فهمنا الأثر الأدبى كما هو ، وكما وجد ، يعرض نفسه على الناقد واضح السيرة ، منسق المقدمات والنتائج . ويقول مانزونى Manzoni : « إن كل مؤلف يبسط لمن يريد أن يفصحه المبادىء اللازمة للحكم عليه ، وهذه المبادىء يمكن استنباطها بأن نسأل أسئلة ثلاثة : ما غرض المؤلف الذى يرمى عليه ؟ وهل الغرض الذى يرمى إليه المؤلف غرض معقول ؟ وهل استطاع أن يبلغ هذا الغرض ؟ وبعبارة أخرى : اكتشف الغرض ، واحكم على قيمته ، ثم انقد صنعة المؤلف[١] وخلاصة هذا الشرط أن يتوافر للناقد ذكاء حاد يدرك به أسرار الأدب وصفاته المختلفة ، ثم معرفة عريضة بحياة الأدب والأديب ، وبهذا يكون قد أعد نفسه للدخول فى باب النقد ، واتخذ الأهبة التى تجعله حكما عادلا للفصل فى الشئون الأدبية ، والتمييز بين الأدباء .

(٢) المشاركة العاطفية Sympathy ، وهى الخطوة الثانية بعد ما ذكر قبلا من إعداد النفس وتزويدها بالوسائل اللازمة لهذا الفن الأخير والمراد بالمشاركة العاطفية أن يكون الناقد ذا قدرة على النفاذ إلى عقول الأدباء ، ومشاعرهم ؛ يحل محلهم ، ويأخذ مواقفهم أمام التجارب التى بلوها ، والفنون التى عالجوها ،

(١) قواعد النقد الأدبى ، تأليف لاسل آبن كرومبى . ترجمة محمد عوض ، ص ١٨١ .

ليرى بأعينهم ، و يسمع بآذانهم ، ولعله يدرك الأشياء كما أدركوها متأثرة بوجهة نظرهم وطبيعة أمزجتهم . وهو بذلك يحاول نسيان نفسه ليحيا فترة فى ظل هؤلاء الأدباء ، وفى نفوسهم أو بيئتهم النفسية مندمجاً فيهم ، كالغواص يهبط إلى أعماق البحار وراء طلبته دراساً أو مستخرجاً جواهرها المخبوءة . ولعل الناقد يفعل أكثر من ذلك فيسوم نفسه الكتابة أو الشعر أو القصص ممتحناً مواهبه ، سائلا نفسه : ماذا عسى أن تقول إذا حملت على القول ، ثم كيف حول هؤلاء الأدباء أفكارهم وعواطفهم إلى هذه الصورة الأدبية التى نرتلها شعراً منظوماً أو تقرؤها نثراً أو منثوراً . و بذلك نكون قد عاشرنا النصوص الأدبية من نشأتها الأولى إلى أن استوت ناضجة وعرفنا ما ألم بها فآذاها أو قوّمها فكانت كما نراها حقاً أو باطلا أو بين الحق والباطل وهل يستطيع الناقد — إذا لم يعاشر الفنون الأدبية — أن يقول : إن هذه القضية العقلية أصابها اضطراب فى البرهان أو غموض فى الإدراك ، أو أن هذه العاطفة بدأت جياشة قوية ، ثم فترت أو أن ذلك أثر فى التعبير فكان معقداً أو فاتراً سقيما ؟

و إذا كنا نطالب الناقد أن يكون الأديب أمام ما يتناول من تفكير وتصوير وتعبير فانا نطالبه أن ينسى مااستطاع كل مايحول دون اتحاده بالأدباء : ينسى ميوله الخاصة وذوقه ينسى صلاته الأخرى — أن وجدت — بالشعراء والكتاب ينسى ما قد يكون فى نفسه من قيم وأفكار عنهم لئلا تسبق فتؤثر فى تصوير آثارهم وقدرها ، ينسى عصبيته الجنسية أو القومية أو الحزبية ، ينسى كل ذلك وغيره من الأهواء أو العوامل التى تفسد عليه فنه ، وتشوه حقائق النصوص أمامه وتضع فى عمله جرثومة علله وفنائه[1] . وقديماً كان التعصب

---

(١) راجع الموازنة لزكى مبارك ، ص ١ وما وليها .

للشعر القديم آفة النقاد وداعية العجب أو السخرية فقد رُوى عن اسحاق الموصلى أنه قال : أنشدت الأصمعى :

هل إلى نظرةٍ إليك سبيلُ فيُبِلَّ الصدى ويُشفَى الغليلُ
إن ما قل منك يكثر عندى وكثيرٌ ممن تُحب القليلُ

فقال : هذا والله الديباج الخُسْروانى ! ولمن تنشدنى ؟ فقلت إنهما لليلتهما ، فقال : لاجرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر . ومهما يكن من قيمة هذا الشعر ومهما يكن من المبالغة فى حكم الأصمعى الأول فلا شك أن العصبية على معاصريه كانت من صفاته . والقد لقى ابن مناذر بمكة حمادا الأرقط فأنشده قصيدته :

كُلُّ حَيٍّ لاقى الحِمام فَمَودِ مالِحى مؤمِّلٍ مِن خُلودِ

ثم قاله : أقرىء أبى عبيدة السلام ، وقل له : يقول لك ابن مناذر : اتق الله واحكم بين شعرى وشعر عدى بن زيد ، ولا تقل ذاك جاهلى ، وهذا اسلامى ، وذاك قديم وهذا محدث ، فتحكم بين العصريين ولكن احكم بين الشعرين ودع العصبيه . وهذا كان نتيجة لهذه الخصومة بين القدماء والمحدثين التى اشتدت فى القرن الثانى للهجرة ، وقد أشار إلى ذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء حيث يقول : « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له ، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلاحقة ووفرت عليه حظه فانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائلة ويضعه موضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ورأى قائله ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده وجعل كل قديم منهم حديثاً فى عصره وكل شريفاً خارجيا

فى أوله فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول : لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخزيمى والعتابى والحسن ابن هانىء ، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا عليه به ولم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » اهـ .

وقد يدلنا على الذكاء وتعرف نفسية الأديب ، وتاريخ النص الأدبى ما قال الرشيد للمفضل الضبى : اذكر لى بيتاً يحتاج إلى مقارعة الأذهان فى إخراج خبئه ثم دعنى و إياه ، فقال : أتعرف بيتاً أوله أعرابى فى شملة هابٌّ من نومته كأنما ورد على ركب جرى فى أجفانهم الوسن فظل يستنفرهم بمنجهية البدو وتعجرف الشدو ، وآخره مدنى رقيق غذى بماء العقيق ؟ قال : لا أعرفه ، قال هو بيت جميل:

ألا أيها الركبُ النِيام ألا هبُّوا

ثم أدركته رقة الشوق فقال :

أسائلكُمْ ، هل يقتل الرجلَ الحبُّ

فقال له : أفتعرف أنت بيتاً أوله أكثم بن صيفى فى أصالة الرأى ونبل العظة وآخره بقراط لمعرفته بالداء والدواء ؟ قال قد هوَّلت على فليت شعرى بأى مهر تفترع عروس هذا الخدر ؟ قال : بإنصافك و إنصاتك ، وهو بيت الحسن ابن هانىء (أبى نواس) :

دع عنكَ لومى فان اللومَ إغراءُ ودَاوِنى بالتى كانتْ هِى الداءُ[1]

ومن مظاهر الذكاء الحاد والملاحظة الدقيقة ، ما روى أبو تمام قال : حدثنى كرامة قال : قدم رجل من ولد مَعدان بن عبيد المعنى من عند البرامكة ، فقلنا له : كيف تركتَهم ؟ فقال : تركتهم وقد أنِست بهم النعمة حتى كأنها بعضهم ! قال

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ٦ ، طبعة مصر .

أبو تمام : قال كرامة : فحدثت بهذا ثعلبه بن الضحال العاملى ، فقال : لقد سمعت من بعض أعرابكم نحوا من هذا : قدم علينا غسان بن عبد الله بن خيبرى فى عنفوان خلافة هشام ، فرأى آل خالد القسرى فقال : إنى أرى النعمة قد لصقت بهؤلاء القوم حتى كأنها من ثيابهم قلت : فان صاحب هذا الكلام ابن عم صاحب هذا الحديث فيما أرى ، أما ترى كلامه ابن عم كلامه ؟ (١)

والواقع أنه لا يقدر على توفير هذا الشرط فى نفسه ثم الرجوع بها إلى ثالث الشروط إلا من كان قوى السلطان على نفسه مرنا ، يستطيع التفريق بين عقله وقلبه ، والتردد بين إنصاف الحق وجمال الذوق .

(٣) الذاتية أو الفردية — Individuality . وهى الشرط الأخير أو العودة إلى النفس والخروج من دنيا الأدباء إلى دنيا الناقد نفسه بعد هذه النقلة أو الرحلة السالفة ولسنا ندعى تقسيم النفس شطرين أو الخلاص المطلق من عقليها الظاهر والباطن ، وانما نريد بالذاتية أن يضيف الناقد إلى مشاركته العاطفية مقياسه الدقيق الخاص به الذى لا يصرفه عن سلامة الحكم والانصاف فى التقدير ، وهذا المقياس الخاص مزيج من الذوق السليم والمعرفة الشاملة ، أو هو هذه المواهب النفسية التى تتلقى آثار الأدب مجتمعة فتتذوقها وتحكم عليها . وفائدة الذاتية أن تهب لآراء الناقد قوة العقيدة . وثقة اليقين ، والابتكار أو الجد والطرافة لأن النقد ثمرة شيئين : دراسة موضوعية للأدب بمشاركة منشئه ، وتقديره شخصى يصور من الناقد عقله ، وشعوره ، وذوقه ، فاذا به أدب جديد كالأدب المنقود أو أكثر منه تعقيدا ، وهو كما مر يعرض الطبيعة والأدب والناقد ، وهو يجمع بين الموضوعية والذاتية ، فعلى الناقد أن يعود بما عرف عن الأدب وموقف منشئه ثم يفرغ للدراسة والموازنة ، والحكم آخر الأمر . ويقول

(١) أخبار أبى تمام للصولى ، ص ٢٥٣ .

الأستاذ أحمد ضيف فى هذه النقطة وسابقتها : « ومن شروط النقد الصحيح أن يبتعد الإنسان عن أهوائه وميوله عندما يقرأ كاتباً أو شاعراً يريد أن يفهمه كما هو ، ولابد أن يتخلى أيضاً عن أذواقه الخاصة لأن الاستسلام إلى ذوق الشخص ينافى طريقة النقد الصحيح ، هذه الطريقة — طريقة تخلى القارىء عن ذوقه الخاص ، وعن المؤثرات التى تحيط به — تجعله يفهم الكاتب ويفهم الشاعر بنفس الشاعر التى قال بها شعره . ولا بد من وضع القارىء نفسه فى الظروف والأحوال التى أحاطت بالكاتب وقت كتابته . هذه الطريقة هى التى تمكن القارىء أو الناقد من فهم روح الكتابة ولا بد من أن ينسى الانسان نفسه بين صفحات الكتاب الذى يريد أن يقرأه فاذا انتهى من تحليل الكتابة وفهمها على طريقة الكاتب نفسه رجع إلى معلوماته الشخصية و إلى ذوقه الشخصي و إلى ما اكتسبه من النقد بالتجربة والدرس فى الحكم على المؤلف »[1] ، ويقول الأستاذ طه حسين[2] فى هذا المعرض : « فى الناقد الخليق بهذا الوصف مزايا الأدب الخليق بهذا الوصف وعيوبه لا يكادان يفترقان إلا فى أن أحدهما — وهو الأديب — يتخذ طبائع الأشياء وحقائقها مادة لأدبه ، وموضوعاً لانتاجه ، على حين يتخذ أحدهما الآخر — وهو الناقد — صور الأشياء ونماذجها — أى الأدب نفسه — مادة للنقد وموضوعاً ، ومع ذلك فليس من المحقق أن الناقد لايلم بطبائع الأشياء وحقائقها ، وربما كان المحقق عكس ذلك ، فما أكثر ما يحتاج الناقد إلى أن يعالج الموضوع الذى عالجه الأديب ليبين أو ليتبين ما عسى أن يكون قد عرض للأديب من صعوبة ، وما عسى أن يكون قد سلك إلى تذليل هذه الصعوبة من طريق ، وما عسى أن يكون الأديب قد وفق إليه من إجادة أو

---

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ٩ — ١٠ .

(٢) الثقافة ، عدد ١ .

ما تورط فيه من إساءة . فالناقد آخر الأمر أديب بأدق معانى الكلمة ، والنقد آخر الأمر أدب بأصح معانى الكلمة أيضاً ، وربما أتيحت للناقد مزايا لا تتاح للأديب المنشىء ؛ فالناقد مرآة صافية واضحة جلية كأحسن ما يكون الصفاء والوضوح والجلاء ، وهذه المرآة تعكس صورة الأديب نفسه كما تعكس صورة القارىء وكما تعكس صورة الناقد ، فالصفحة من النقد الخليق بهذا الاسم مجتمع من الصور لهذه النفسيات الثلاث ، نفسية المنشىء المؤثر ، ونفسية القارىء المتأثر ، ونفسية الناقد الذى يقضى بينهما بالعدل ويزن أمرهما بالقسطاس المستقيم » .

الفصل الرابع

النقد الأدبى بين العلم والفن

أشرنا فيما مضى إلى هذه الخواص التى تميز العلم من الفن وتفرق بين طبيعتهما وصلتهما بالحياة فلا نعيدها هنا[1] وإنما عقدنا هذا الفصل لبيان ما يصل النقد الأدبى بكل منهما ، أو بعبارة أخرى : إذا كنا عرفنا النقد الأدبى بأنه بيان الصفات الأدبية التى نقيس بها النصوص والمؤلفات لنقدرها بها ، فهل من الممكن أن نضع قواعد ومقاييس ثابتة محدودة نقدر بها الأدب ؟ وهل لكل عنصر من عناصر الأدب موازين أو خواص إذا توافرت له كان سامياً ؟ وأخيراً هل يمكن وجود علم النقد الأدبى ؟

اشتد الخلاف بين النقاد أنفسهم حول هذه المسألة ، فمنهم من قال : إن النقد مسألة ذاتية خالصة تعتمد على ما تبعثه النصوص فى نفوس القراء من انفعالات ، وما تؤثر فى أذواقهم من آثار مقبولة أو منكرة وهذه النفوس والأذواق مختلفة باختلاف الأفراد فكل يتلقى النصوص وآثارها بطبيعة ممتازة ، ويتذوقها بحس خاص ويقدرها تبعاً لذلك ، على أن هذه النصوص والأذواق تستحيل مع الأيام وسعة الثقافة ، واستحالة الحياة الاجتماعية والطبيعة ، فتصبح أحكامها معرضة للنقض والتناقض . ومعنى ذلك تعدد الأحكام بتعدد النقاد ثم تغيرها بتغير الأحوال ، وليس هذا من طبيعة العلم ذى القوانين العامة الثابتة التى لا تتأثر بالملاحظات الفردية ولا المؤثرات الزمانية والمكانية ، ولكنها تمثل الموضوعية دون الذاتية التى هى طابع الفنون . على أننا إذا عرضنا لنقد الأدب العام نفسه ذلك

(١) الفصل الخامس من الباب الأول من هذا الكتاب .

الذى يحتوى حقائق وأفكاراً مقررة فلن نسلم من تأثير أذواقنا وأمزجتنا فى الحكم عليه تبعاً لما تثير الأفكار والأساليب فى نفوسنا من آراء وعواطف . ومن العسير أن يخلص المرء من ذوقه الذى يعد عنصراً هاماً فى هذا الباب .

ويقابل ذلك أن ترك النقد خاضعاً للأذواق الفردية يعرضه للفوضى والباطل مادام كل يتبع هواه وما دمنا لا نثق بسلامة هذه الأذواق كلها حتى نطمئن إلى أحكامها . فاذا اتخذنا مثلا أو عدة أمثلة من النصوص الممتازة لتكون نماذج يقاس بها غيرها فيما توافر لها من أسباب القوة والجمال — ضيقنا ميادين الأدب وعبثنا بحرية الأدباء ومواهبهم المختلفة ، ووقفنا بمقاييس النقد عند صفات جزئية ضررها أكثر من نفعها ، لذلك كان لابد من نظام نقدى ووضع حدود تحول دون الفوضى من ناحية والتضيق على الأدب والأدباء من ناحية أخرى ونعود فنقول : أيمكن وضع علم للنقد الأدبى ؟

يعترض كثير من الباحثين على محاولة إيجاد هذ العلم وأنكروه معتمدين على آراء يحسن بنا أن نعرض هنا للقول فيها ومناقشتها[١] .

(١) أول ما اعترضوا به أن هناك فرقاً بين طبيعة العلم ومقاييسه و بين ما يشاهد فى النقد الأدبى ، فالعلم له حقائقه الحسابية ، والمنطقية ، والنحوية المقررة المحدودة فاذا وافقتها الشواهد التطبيقية كانت صواباً و إلا كانت خطأ ، وكلنا يعلم أن العدد الزوجى يقسم على اثنين وأن الجازم يحذف حرف العلة دون أن يكون لأذواقنا دخل فى هذا الحكم القائم على قوانين صارت ثابتة لاتتغير . أما النقد الأدبى فالملاحظة فيه هو تحكيم الذوق ، والذوق كما عرفت يختلف باختلاف الأفراد ، وكل ناقد له رأيه الذى يلائم ذوقه ، ويخالف رأى أخيه ، ونحن أمام هذه الآراء المتباينة لا نستطيع ترجيح أحدها على الآخر إلا تحكما

(١) Winchester : Principles of Literary Criticism. P. 17.

أو ميلا مع رأى يتفق معنا أو يقرب من ذلك . كما أن أحدهما لا يمكن الاطمئنان اليه ، واتخاذه قاعدة عامة ، ما دام شخصياً أو ذاتيا يمثل الفرد الواحد ولا يصور حقيقة عامة ، ومعنى ذلك كله أن النص الأدبى متى أمتعنى وسرنى فقد انتهت المسألة ، ومتى راق كثيرين كان عندهم رائعا ، أما أن يكون هؤلاء على صواب أو على خطأ ، أما أن نتحكم فى أذواقهم ونرميها بالسقم والفساد ، فذلك منا عدوان ، ومشاحة فى الأذواق لا تليق ولا تباح ، وإن كان ذلك لا يمنع وجود حقيقة أدبية مقررة ترضى الذوق السليم حقا ولا يعنيها كثرة المعارضين .

وقد أجاب علماء النقد عن هذا الاعتراض بأنا نسلم باختلاف الأذواق الفردية ، وبتفاوتها رقيا وانحطاطا ، وصحة وفسادا ، تبعا لمقاييس الجمال التى يعرفها فلاسفته ويرتبون الأذواق بمقتضاها ، فما يمنع أن ننتفع بذلك فى النقد الأدبى ونتبين أن نصوصا خاصة تلائم الشعب الراقى المهذب لصفات لفظية ومعنوية فيها ، وأن قطعا أخرى توافق أممًا مختلفة لصلات خيالية أو موضوعية بينهما ، وهُدانا فى ذلك ذوق الأمة فى كل وما يخضع له من خواصها الاجتماعية ومستواها التهذيبى ؟ ونجد مثال ذلك فى الفرد نفسه فهو يقرأ اليوم قصيدة يطرب لها وتروقه فاذا به بعد مدة ما يراها تافهة أو متوسطة والقصيدة لم تتغير وإنما تغير ذوقه أو إذا شئت فقل ترقى وصار لا يشبعه إلا مثل آخر أسمى من الأول . وهنا نستطيع — بالموازنة بين الطورين وما قد ينفع فى كليهما — أن ندرس الذوق ونضع له مقاييس تضبطه رقيا وانحطاطا وهذه المقاييس تصبح قوانين علمية تفيد فى علم النقد الأدبى . وقد تكون هذه القوانين عامة أو لما تنضج وتستقر ، ولكن ذلك لا يقطع الأمل ويدعو إلى اليأس . ولعلنا لا نحتاج إلى تمثيل هذه المسألة باختلاف الأحكام التى صدرت على الشعراء والكتاب قديما وحديثا ،

فكتب الأدب والصحف ملأى بآراء هى فى الغالب صور لأذواق النقاد أكثر مما هى أحكام سديدة على آثار الأدباء .

(٢) واعتراض ثان ربما كان أهم من سابقه إذ لا يعنى باختلاف الأذواق بين الجماهير أو متوسطى الثقافة فى شعب ما ، وإنما يتجاوز ذلك إلى الممتازين من النقاد وأصحاب الكفايات الخاصة ؛ فهؤلاء تختلف أذواقهم فتختلف لذلك أحكامهم على الآثار الأدبية اختلافا واضحا . واختلاف هؤلاء الحكام الأكفاء غريب خطير ، فهم يختلفون أولا باختلاف الشعوب ، فكبار النقاد فى كل أمة لهم أذواقهم المتأثرة بمزاج الأمة ، وثقافتها ، ومقاييسها الفنية وتقاليدها الأدبية الموروثة والمستحدثة ، واذا كنت تجد ذلك بين الشعوب المتباعدة كالانجليز والعرب فانك تجد مثله أو نحوا منه بين الشعوب العربية والمستعربة كالمصريين والشاميين والعراقيين على الرغم من هذا التواصل العام فى الثقافة الاسلامية المشتركة من عهود قديمة إلى الآن . وهم يختلفون باختلاف العصور التى ينتقل فيها الشعب الواحد ؛ فلا شك أن كبار النقاد فى مصر الآن تختلف مقاييسهم الذوقية عن زملائهم منذ جيل من الزمان أو منذ نصف جيل بسبب ما تأثرت عقولهم وعواطفهم بعوامل النشاط العلمى والفنى المعاصر . ولا شك أن نقاد القرن الثالث الهجرى كانوا ذوى نظرات وملاحظات نقدية تخالف نقاد القرن الأول ونقاد العصر الحديث لأن الذوق كما علمنا يستحيل مع الأيام . وهم يختلفون أيضاً فى الشعب الواحد فى الزمان الواحد ، فكم اختلف نقاد القرن الأول حول جرير والفرزدق والأخطل ، وكم اشتد الجدل حول بشار ومسلم بن الوليد وأبى نواس فى عصرهم ، والعهد قريب بهذه الموازنة بين حافظ وشوقى و بين الأحياء من الكتاب والشعراء المؤلفين ، كل ناقد له رأيه لأن له ذوقه وشخصيته الأدبية ، وغير ذلك اختلاف هؤلاء النقاد فى أصول الأدب التمثيلى من حيث تأليفه

وعناصره ، ولنذكر مثالا لذلك هذه الوحدات الثلاث ، وحدة الزمان ، والمكان والموضوع ، فاكثر النقاد لا يرتاحون إلا بتوافرها جميعاً ، وان أذواقهم لتتأذى إذا نقصت منها واحدة فشغلت الرواية أكثر من يوم أو مكان أو حادثة وحدة ، فى حين أن غيرهم يرى عكس ذلك ويرتاحون إلى تحلله من الأولين وإن لم يهمل الثالثة . ثم جمع الانفعالات المتناقضة وخلط النكت الفكاهية بأحزان المآسى التمثيلية كالضحك من هلاك كليوباترا (Cleopatra) بسم الأفعى ، أو من مصرع ماكبث (Macbeth) جزاء غدره ، أو من حزن أوفيليا (Ophetia) فى روايات شكسبير ، فمن النقاد من رأى فى ذلك جرحا للفن المهذب الراقى وخروجا على أصوله الملائمة . ومنهم من يرى ذلك أشد تأثيراً فى النفوس وأقرب إلى قوانين الطبيعة البشرية ، هذه القوانين التى تعتبر الأسس الصحيحة للفن .

فأمام هذا الاختلاف فى الذوق بين الأكفاء من النقاد ، يبدو أنه من المستحيل وضع قواعد علمية للنقد الأدبى بحيث تضبط هذه الأذواق وتظفر بالموافقة التامة .

وردا على هذا الاعتراض الثانى يسلم علماء النقد بوجود هذا الاختلاف أيضاً بين النقاد الممتازين ، ولكنهم يقولون إن الاختلاف ليس عظيما كما يتوهم المعترضون ، والحق أن وجوه الخلاف الذوقى بين الشعوب المختلفة ، والعصور المتعاقبة والنقاد النابهين أقل كثيراً عن وجوه الاتفاق . على أن هذه إذا لم تكن أكثر عدداً فهى أعظم أهمية . فاذا لم نسلم بذلك نفينا وجود الأدب الخالد — ولا شىء فى الدنيا يخلد خلود الأدب والفن بوجه عام — ويمكنك أن تلاحظ ذلك فى اجماع الشعوب على عظمة هومير وشكسبير ، وعلى إقرار الناس بعظمة المتنبى ، وجمال البحترى ، وبراعة الحاحظ فهما تختلف بهم العصور والبيئات .

وتستطيع أن تزيد على هذا فتلاحظ أن أسباب جمال الأدب وقوته عند المتقدمين هى بعينها أسباب الجمال والقوة عندنا نحن ، وإن كان من المحتمل وجود تفاوت فى درجة التذوق الأدب ، وفى قيمة كل صفة من صفاته الرائعة ؛ فهناك ، إذا ، طابع إنسانى عام تخضع له جميع الأذواق . يصح أن يكون هذا الطابع الأساسى مقياساً وقانوناً من قوانين النقد الأدبى . فهذا وجه يتصل معظمه باختلاف الأذواق تبعاً للاختلاف الشعوب .

وهناك وجه آخر يتصل باختلافها فى الأمة الواحدة . وهى اختلافات قليلة فى العادة ، فالنقاد عندنا كلهم أو أكثرهم على تقديم امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى على الجاهليين ، وهم يعدون جريراً والفرزدق والأخطل فحول القرن الأول ، ويعرفون قيمة أصحاب المقامات والرسائل ويسلمون بمكانة أبى تمام والبحترى والشريف والمتنبى والمعرى ، كما يعرفون للمعاصرين من الأدباء ميزاتهم البيانية وهذا الاتفاق إن دل على الشىء فهو أن فى نفوس هؤلاء النقاد مقاييس متحدة وأذواقا متشابهة أدت إلى هذا الاتفاق فى الحكم والتقدير . ويمكن ، اذا ، ضبط هذه المقاييس ودرسها واتخذها اساساً لوضع أصول النقد الأدبى ومسائله العلمية مهما يكن فى هذا من المشقة وما يستدعيه من المرونة والبراعة . وذلك لأن علم النقد هذا مضطر أن يحتاط لهذه القلة التى تخالف الكثرة ، فلا يجعل قوانينه جزئية دقيقة كقواعد النحو والبلاغة والعروض بل تكون طبعية عامة تسمح لكل ذى ذوق مصفى أن يشترك فى الانتفاع فيها حتى ولو كانت ميوله شخصية تماما ؛ كالمتشائم الذى يميل مع المعرى واللاهى الذى يؤثر أبا نواس ، والحكيم الذى يفضل المتنبى . . . وهؤلاء يعدون جميعا عظماء فى رأى المنصفين وإن تجاذبتهم الأمزجة والميول .

على أن هذا الاختلاف الكثير بين الأذواق يدل فى حقيقته وأعماقه على

اتفاق شامل وهذا يظهر فى قوانين الرواية التمثيلية التى تسربت إلينا خلال العصور كما هى على الرغم من تبدل الأحوال التى استدعتها عند اليونان الأقدمين . فالوحدات التى أشرنا إليها كانت ملائمة للقصة اليونانية التى كانت تمثل لتؤدى إلى غاية معينة خاصة ، فكان توافر هذه الوحدات مساعداً على ذلك ، ولكن ليس معنى هذا أن نتقيد بها دائماً مع أن أغراضنا التمثيلية قد تجددت ، ولا أن التمثيل اليونانى القديم يبقى كما هو مثالا للفن المسرحى ، إذ لايقول أحد بخلود القوانين الفنية وسيطرتها العامة ما لم يثبت أن الأحوال التى أثمرتها ورقتها خالدة حتما وحق مشترك بين جميع العصور والبيئات . ومثال ذلك وحدة الموضوع فى القصة الواحدة فهذه موضع اتفاق عام لذلك صارت حقيقة عامة خالدة ، ومعنى هذا أن التحوير فى مقاييس النقد طوعاً لتغير الأحوال يدل على اتحاد فى الذوق العام واتفاق بين أصحابه يساعد على إخضاع أذواقهم لقواعد علمية عامة هى قواعد النقد الأدبى .

وهناك اعتراضان آخران على محاولة وضع علم للنقد الأدبى ، وهما لايقومان على اختلاف الأذواق بين النقاد ، وإنما على طبيعة الأدب نفسه .

(١) أولهما أن ميدان الأدب عريض ، وفنونه كثيرة ، وخواصه البيانية والأسلوبية تكاد تكون بعدد الرءوس والأقلام ، فكيف يستطيع باحث إحصاء ذلك وتقسيمه وإخضاعه لقواعد محدودة ثابتة ؟ نحن الآن بصدد اختلاف الفنون الأدبية وخواصها البيانية بحسب طبيعتها وتأثرها بالبيئة التى أثمرتها لا بصدد الأذواق الأدبية وتباينها ، فهناك الشعر ، والكتابة ، والخطابة ، والرسالة ، والمقامة ، والقصة . وهناك أنواع الشعر والخطابة والرسالة . هناك تشاؤم أبى العلاء وثورة المتنبى وأطماعه ، وصدق جميل ، وعبث أبى نواس . وكل أولئك صفات أدبية مقررة تروق القراء ، فاذا نظرت من ناحية أخرى رأيت

أدباً عاطفياً يقوم فى الأكثر على ثورة العاطفة وبعثها ، وأدباً عقلياً يعنى بالفكر وإمداده بالحقائق والآراء ، وأدباً أسلوبياً هم أصحابه جمال التصوير ورقة التعبير ، وأدباً قوياً جميلا لأسباب قد نعجز عن توضيحها ، فكيف نجمع هذه الخواص فى قوانين ، وكيف نحصر جميع المواهب العقلية ، والمشاعر الوجدانية التى يعتمد عليها الأدب ثم ندونها فصولا وقواعد ؟ إنا إذا تتبعناها جميعاً كنا أمام مقاييس لا تحصى ولا تنفع لتغيرها حسب الفنون والأساليب ، وإذا اختزلناها كانت قليلة تافهة لا تشمل آثار الأدباء جميعهم ولا كثرتهم والأدب صور الحياة الإنسانية التى لا تحد ولا تحصى مظاهرها .

ويجاب عن هذا الاعتراض بأن هذه الأنواع الأدبية الكثيرة والخواص التى لا تنتهى ، لها أصول عامة ثابتة يمكن حصرها وتنسيقها وإدخالها تحت مقاييس عامة أيضاً ، فالعواطف تخضع لقوانين الصدق والقوة والسمو مهما تختلف والأخيلة التى لا حصر لها توصف بالجمال ، وحسن التأليف ، والاتصال بالحس وعدم الإحالة ، والقدرة على تصوير الشعور . والأساليب واضحة قوية جميلة ، وهكذا يكون الشعر مؤثراً والكتابة مقنعة والخطابة مقنعة مؤثرة كما هو مقرر فى النقد الأدبى . ومعنى ذلك أن هذه الكثرة النوعية لا تجعل علم النقد مستحيلا ، وإن كانت تشير إلى صعوبته وإلى وجوب مرونة قواعده .

(٢) والاعتراض الثانى متصل بالأدب من حيث أنه مظهر لشخصية الأديب وعبقريته ، فالأدب كما مر بك تعبير عن شخصية الأديب : ماعناصرها ؟ كيف تنشأ ؟ وكيف تمتاز وتثمر ؟ لا نعرف ذلك للآن معرفة علمية واضحة وإن كنا نرى آثاره فى القصائد المختلفة ، وفى دواوين الشعراء وآثار الأدباء والفنيين ، وهى آثار مختلفة الألوان والأذواق باختلاف الفنيين والأدباء ، ومن الصعب وضع قانون أو قوانين تجمع مواهب غامضة من ناحية ، وكثيرة لا تكاد تحصى من

ناحية ثانية ، فمهمة النقد شاقةعسيرة حين يحاول إيضاح هذه العبقريات المتنوعة ، ودرس آثارها درساً مقارناً ، و بيان أسباب محاسنها ، ثم تدوين ذلك بطريقة علمية حاسمة . وهذا الاعتراض قد ألم به سينتسبرى Saintsbury فأشار إلى أن النقد الأدبى العلمى غير ممكن إلا اذا استعملنا كلمة - علمى - فى غير معناها الحقيق ، لأن الخواص الجوهرية للأدب والفن ذاتية تقوم على الفطرة والمزاج الخاص وهى بذلك تنافى طبيعة العلم ، نعم قد يمكن وضع هذه الخواص الأدبية أقساما ونظمُها فى قوانين عامة قد تقل وتوجز ولكنها تقصر دون التعميم العلمى والصياغة الدقيقة ، فليس هناك تعليل علمى يوضح هذه المسألة : لماذا لم يكن أى شخص شكسبير ، بل لماذا لم يكن كل أحد شاعراً ، والعلم لايزال عاجزاً عن تفسيرما نراه من هذه الفروق فى التعبير بين الأدباء حين يصوغ أحدهم من الكلمات أسلوبا رائعاً خالداً ، ويعجز الآخر أن يتخذ بصياغته ما يوازى الأول فى الروعة والجلال[1] .

على أن النقد العلمى يقصر دون تحقيق الغرض الذى تسعى اليه ؛ فقد يستطيع بالدرس والموزنة بيان ما يتشابه فيه الكتاب والشعراء وما يختلفان ، و إخبارنا بهذه الميزات التى أثمرتها عبقرية المتنبى أو البحترى فكان ذلك عظيما خالداً ، ولكن ليس هذا ما نبتغيه من النقد الأدبى ، انما نبغى ذوق المتنبى أو البحترى واشعار أنفسنا بما للأديب من نكهة خاصة وطعم ممتاز . أفيستطيع أى ناقد حصيف أن يشرب نفوسنا ذلك ؟ لا ، إن النقد قد ييسر ذلك أو يمهد له ولكنه يعجز دون إضفائه علينا ؟ فاذا أردنا تذوق الجاحظ أو المعرى أو أبى نواس أو شوقى والإلمام التام بشخصية أحدهم وجب أن نقرأ آثاره بأنفسنا قراءة صحيحة عميقة وألا ننتظر أحداً يقدمه لنا . وهنا نصل الى مسألة أخرى هى مسألة

(١) نفس المرجع (Winchester) ، ص ٢٧ .

التأثر والانفعال الشخصى بالأدب وقدره تبعاً لذلك ، فاذا قرأنا الجاحظ بعث فى نفوسنا إعجابا بثقافته الواسعة ، وسخريته اللاذعة ، وبراعته النادرة ، وأسلوبه الطيِّع المواتى ، أيكفى أن أثق بحكمى الخاص أو أقف عند سرد هذه الصفات دون تعليل ولا تفسير ؟ أما الاعتماد على الحكم الخاص فمعناه أن النقد الأدبى أحكام فردية خاصة وقد قلنا إنها فوضى وخطر على الأدب والنقد جميعاً ، وأما الوقوف عند قولهم أنا أحب هذا الأديب دون ذاك أو هذه القصيدة دون تلك فحسب ، فهو عمل سلبى ليس من النقد فى شىء ولا بد من محاولة توضيح هذا الانفعال الحب أو المبغض ؟ لم كان وما أسبابه ، أهى عقلية أم عاطفية ؛ أسلوبية أم خيالية ؛ موضوعية أم شكلية إلى نحو ذلك .

وقد قيل فى مناقشة هذا الاعتراض : إنه إذا كان التأثر الشخصى لايصلح أساساً للنقد ؛ وقد صار من اللازم إصدار أحكام نقدية على الأدب ، فما العمل ؟ ألا يستلزم هذا وجود مقاييس لتنظيم هذه الأحكام ؟ وعلى أى أساس تقوم هذه المقاييس إذا لم يسبقها أو يصاحبها بيان أنواع الأدب وقواعد تقديره تقديراً فنياً صحيحاً ؟ الواقع أننا لانستطيع بيان الميزات القويمة للنص الأدبى دون الاستعانة بأصول نقدية مقررة على الرغم من وجود نصوص أدبية قد تسمو على التعليل والتحليل وتعجزنا عن اكتناه أسرارها الفنية وخواصها الأدبية .

* * *

هذه الاعتراضات وما لابسها من مناقشة تدل على أن النقد الأدبى يقف موقفاً وسطاً بين العلم والفن بمعناهما الدقيق أو هو فن منظم ، لأن طبيعة العلم التى تسيطر على الجزئيات مستقصية ثم تستنبط من ذلك قوانين عامة حاسمة لاسلطان للذوق الشخصى عليها — هذه الطبيعة تخالف الواقع فى النقد الأدبى الذى يصطدم دائماً بهذه الأذواق المتباينة والعبقريات الكثيرة والفنون الأدبية المختلفة التى

لا يشملها قانون عام ، لذلك كان الواجب الأول على من يريد إخضاع النقد المناهج العلميـة أن يحتاط لهذه الأمور فيجعل قواعده بسيطة قليلة ، وليحذر محاولة التقنين التفصيلي الدقيق و إلا وجـد نفسه أمام الأذواق الخاصة للنقاد يضع لـكل مقياسه المقصور عليه ، والنقد لا يعرف ناقداً يعينة صغيراً كان أو عظيما ، بل يعرف الأصول المقررة على قلتها و بساطتها ؛ كما أنه يتجه إلى الأدب دون الأدباء .

على أن هذه القواعد النقدية التى يسترشد بها النقاد حين ينهضون بوظيفتهم لا يمكن مطلقاً أن تخلق الأديب المنشىء ولا الناقد البارع ما لم يكن لهما من طبعهما أساس خلق وعبقرية موهوبة ، فالأديب حين يبدع مايقول لايضع نصب عينيه قوانين يستشيرها بل يستوحى طبعه و يستلهم عبقريته الخاصة وليس من طبيعة الأشياء أن تقول للشاعر أو الـكاتب هاك أصولا تقيد بها وحدها حين تقول ، إذ كان الحق أن هذه القواعد مستنبطة من الأدب لا أن الأدب وليد هذه القوانين .

وزيادة على ذلك فليس فى مكنة قانون نقدى أن يرسم لنا طريقة قصيرة سهلة لتقدير الأثر الفنى لأن الآثار الأدبيـــة ، وبخاصة إذا كانت عظيمة ، شديدة التعقيد لاحتوائها صفات مختلفة ، يندر أو يستحيل أن تتألف فى اثنين بشكل واحد ؟ لهذا لا نأمل — فى تقدير هذه الصفات تقديراً تاماً — أن نقنع بتطبيقها على هذه القواعد البسيطة ليس غير ، ولا سيما أن أصول النقد مهما تـكن سديدة ، ليست هى الركن الأساسى فى باب النقد ، فهناك ذوق الناقد ومشاعره التى تهيىء للحكم وتصقله ، وعليه أن يدرس ويفهم ، و يحسن قبل إبداء رأيه .

و إذاً فما فائدة هذه القوانين النقدية ما دامت لا تستطيع أن تبعث فينا شعوراً بجمال الأدب ، وانفعالا نتـكىء عليه فى سبيل التقدير والانتقاد ؟ إنها

تساعد فى صقل مشاعرنا ، وهداية أذواقنا حين يعتريها خمود أو ضلال ، وتجعل أحكامنا النقدية أقرب إلى الصواب وأدعى إلى الاحترام والكمال .

و إذا كان النقد الأدبى كما مر شيئاً بين العلم والفن ، فيه من كل حظ ، كان من الطبعى أن تكون دراسته كذلك وسطاً بين جمال الفن ودقة العلم ، وليس من المنتظر أن نضمن لها اللذة دائماً لأن طبيعة النقد ليس فيها روعة الخيال وهزة العاطفة التى نظفر بها عند قراءة الأدب ذاته ، أما تحليله وتعليله فقد يصرفنا عن الاستمتاع بما فيه من سحر وجلال . نعم إن بعض النقاد يحاولون أن يكتب بأسلوب رائع جذاب يخفف من هذه القسوة العلمية التى يقتضيها النقد وتستدعيها الأمانة فى العرض والتفسير ، ولكن ذلك قد يبعد به عن مهمته قليلا ، فليحذر الناقد القصور الناشىء عن جفوة العلم وقسوة المنطق بقدر ما يحذر التقصير رغبة فى روعة الأسلوب وجمال التخييل .

الفصل الخامس

فى وظيفة النقد الأدبى

يحمل الشاعر الانجليزى الكبير وليام وردزورت William Wordsworth (١٧٧٠ — ١٨٥٠ م) على النقد الأدبى و يعده عبثاً باطلا لاغناء فيه ، و يرى أن المقدرة على النقد أحط من المقدرة على الإنشاء ، ولو أن النقاد أنفقوا أوقاتهم فى كتابة أى شىء آخر فى باب ما بدل إضاعته فى هذا الباب لكان ذلك أجدى عليهم ، وأعود على نفوسهم بالتهذيب دون أن يقلقوا غيرهم من الكتاب والشعراء على أن النقد محتوم الضرر إذا تناوله غير الأكفاء ، فعلى الناقد أن يرجع إلى ضميره ، و يسأل نفسه : ما الفائدة المنتظرة من نقده آثار الأدباء[١] .

وكأنى بهذا الشاعر الكبير قد ضاق ذرعاً بجماعة النقاد وعدّ عملهم فضولا وتطفلا على هؤلاء الأدباء الذين ينشئون الأدب و يبتكرون فى ضروبه المختلفة حتى إذا فرغوا من ذلك تعقبهم هؤلاء صاخبين يحيون على آثارهم حقاً أو باطلا ، فليمت النقد الأدبى ، ولينصرف النقاد إلى غير هذه الحرفة لعلهم ينجون من سخط شاعر انجلترا العظيم .

ولكن إذا نحن سلمنا معه برفض النقد الخاطىء ، وقلنا إن قوة ابتكار الأدب و إنشائه أسمى ، فى كثير من الأحيان ، من قوة النقد ، فهل معنى ذلك أن ينصرف الكتاب عن النقد الأدبى وأن يؤمنوا بأن هذه الساعات التى يصرفونها فى نقد

---

(١) Mathews Arnold : Essays in Criticism, First Series. P. 2.

الآثار الأدبية عمر ضائع وحياة لاخير فيها ، ولقد تكون مباركة ميمونة الطالع لو صرفت فى إنشاء الأدب مهما تكن درجته ؟ ماذا يحدث لو ذهب النقد الأدبى أو النقد مطلقاً ؟ لاشك أن الحياة تنطوى إذ ذاك على خطأ كثير وضلال مبين ، وتخضع فى سيرها لآراء أو نظريات طائفة خاصة غير معصومة ولا متناسقة الجهود ، وتمر فاترة وقد تموت فيها المواهب ويتأذى بذلك الأدباء والفنيون أكثر من كل أحد . وإلا فمن يرشدهم إلى الحق ، ويعينهم على الكمال ، ويصرفهم عن الضلال ويصل بينهم وبين الناس لعل الناس ينتفعون بالفنون والآداب نفعاً سليما عميقاً ، ولو ذهب النقد العلمى تعرضت الحياة لمآس مهلكة ، ونتائج زور ، وعاش الناس فى ضلال وأوهام .

وربما كان النقد الأدبى أحق من سواه بالعناية لأن الأدب نفسه أكثر شيوعاً ، وأمس بالحياة الاجتماعية ، وأجمع لخلاصات الجهود الإنسانية من سائر الفنون وهو بعد ذلك صريح واضح ، درجة الايجاز والرمز فيه أقل منها فى الرسم والموسيقا والتصوير ، لذلك كان أبعد أثراً فى حياة الناس . وكان أحق بالنقد والتعقيب ، ومن بين الأدب ونقده تنجلى الحقائق وترسم المثل العليا ، وتتقدم الحياة وتصقل المواهب الانسانية حتى قال بعض النقاد : إن الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم تعرف من آراء النقاد أكثر مما تعرف من الأدب نفسه ، أى أنه يمكن أن يعرف الانسان من ملاحظات النقاد على الكتاب والشعراء صحة مطابقتها للأخلاق والعادات من عدمها لأن النقاد يرون ما لا يراه الكاتب نفسه فتكون آراؤهم أقرب إلى الصواب من آراء الكاتب. وهذه الآراء تبين أفكار الكاتب وحكمه على المجتمع الذى يعيش فيه . لهذا قيل : إن الحكم على الأدب نفسه هو صورة الاجتماع ، أى أن المؤرخ الذى يريد أن يأخذ شيئاً من كتابة الأمم للحكم على مدنياتها ، عليه أن يجمع آراء النقاد المختلفة ويوازن بينها ليستخلص منها صورة

صيحة من الحالة الاجتماعية ، فقد يجد أفكاراً متناقضة مختلفة فى عصر واحد لأن كل انسان له رأى فان لم يكن هناك تمييز بين هذه الأفكار فبأيها يحكم القارىء؟ وعلى أى اجتماع يكون حكمه صحيحا ؟ وماذا تكون الحال إذا حكمنا على زمن الرشيد بشعر أبى نواس ، وأمثاله ، وحكمنا على الشعراء بمثل هذه الاخلاق وأبو نواس يكاد يكون وحيداً فى بابه مع أصحابه كما قال حمزة بن حسن الاصبهانى جامع ديوان أبى نواس : « وقد خص شعر أبى نواس ممن لهج باضافة المنحول اليه بما ليس فى غيره من الأشعار ، وذلك أن تعاطيه لقول الشعر كان على غير طريقهم لأن جل أشعاره فى اللهو والغزل والمجون والعبث كأشعاره فى وصف الخمرة والغزل بالنساء والغلمان ، وأقل أشعاره مدائحه ، وليس هذا طريق الشعراء الذين كانوا فى زمانه وكانوا من بعده ، فأبو نواس فى توفره على الهزل بازاء عمران بن حطان وصالح بن عبد القدوس فى توفرهما على الجد الصرف : » (١)

والحق أن النقد الأدبى ظاهرة اجتماعية لاغنى عنها مطلقاً ما دام الانسان مدنياً بالطبع ينشىء ماينشىء ويقصد بهـذا الانشاء إما تعبيراً عن نفسه وإما تهذيب غيره بالافادة أو التأثير ، ثم يعرض آثاره على الناس لتقرأ فى زمنه أو بعد زمنه . فاذا قرأها الناس أثارت فى نفوسهم أفكاراً وملاحظات هى مع الأديب أو عليه أو استدعت آراء أخرى متصلة بالأدب عن قرب أو بعد . ومن حق هؤلاء القراء أن يعبروا هم أيضاً عن مشاعرهم وآرائهم فيما قرأوا أو سمعوا ، ومن حقهم أن يسايروا الاديب المنسى موافقين راضين أو يعارضوه مخالفين كارهين ، فاذا فعلوا كانوا هم النقاد وكان كلامهم نقداً ، وإلا فما فائدة القراءة ؟ ولم وجد القراء أو الناس ؟ وأخير ما فائدة الأدب والأدباء وإن من يتأمل قليلا فيما يكتب وينشر يجد أكثره نقداً ، ويجده لازماً لإصلاح الادب وسواه ، ثم

(١) أحمد ضيف : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ٧٤ .

أليس الأدب نفسه نقد الحياة تفسيراً و إيضاحاً وكشفاً عما فى طياتها من حق و باطل ، ونافع وضار ، وقبح وجمال ؟ فاذا كان الشعراء والكتاب يسمحون لأنفسهم بتعقب الحياة أفلا يسمحون للقراء أن يتعقبوهم لعل فى ذلك خيراً لهم وللحياة ؟ !

النقد الأدبى يفيد الأدباء المنشئين ، و يفيد القراء المفيدين ، و يفيد الأدب نفسه فلننظر فى بيان ذلك .

أما أنه يفيد الأدباء فمن الوجوه الآتية :

أولها : أنه يفسر آثارهم و يبين الأصول اللازمة لفهمها ، والوجوه التى تفهم عليها وهو بذلك ييسر قراءتها على الناس و يصل بينهم و بين الشعراء والكتاب الذين قد لا يُعرفون لولا النقاد ، ولهذا تتمكن منزلتهم فى النفوس و يشتركون فى بناء الحياة الاجتماعية مؤثرين ومتأثرين ، وكثيراً ما يكتب لهم بذلك الخلود ، وكثيراً ما نرى فى العصور الأدبية كتاباً وشعراء بقوا مغمورين أحياء وأمواتا حتى أتيح لهم النقد فطفوا على لجج الحياة ونشرت آثارهم واستأنفوا عمراً جديدا خصباً خالياً من الآفات ، ولا تزال متاحف الكتب ملأى بكل نافع ينتظر المنصفين من النقاد ليدلوا عليه أو يعنوا بنشره فينشر معه صاحبه .

ثانيها . أن النقد يقوّم الأدباء ، فهو الذى ينظر فى مقدار ما وفقوا فى الوصف أو القصص أو المقال أو الخطابة سواء أ كان ذلك من حيث التعبير الصادق لذاته أم من حيث تأثيره فى الحياة والأحياء ، فان كانوا مخطئين نبه إلى الخطأ وشرع الصواب ، و إن كانوا مصيبين روج لهم ، ووطد طريقتهم ، ورسم لهم مثلا كاملة وأخذ بأيديهم ، لهذا كان النقد المنصف هدى ورشاداً ، وكان خاضعاً لأصول مقررة ترضى الناقد والكاتب فى أغلب الأحيان .

ثالثها : أنه يدل الأدباء على رأى الناس فيهم و يلفتهم إلى تقدير هؤلاء النقاد

ومراعاتهم حين الإنشاء الأدبى ، و إلى التخفيف من غلوائهم ليكونوا مع الناس فى إلف أو نحوه فيتحقق بذلك التعاون الثقافى والتهذيبى ، و يدخل الأدب إلى الحياة ينير سبلها ، و يخفف من شقائها ، و ينشر على الناس جمالها .

والنقد الأدبى يفيد القراء من عدة نواح :

الأولى أنه يقرب إليهم الآثار الأدبية كما مر ، و يساعدهم على فهمها وقدرها ، ولا سيما أن القراء طبقات متفاوتة الكفايات ، منوعة الأمزجة ، ومنهم من يكون حديث العهد بالأدب أو بعيدا عن مشرب الأديب ، فهو فى حاجة إلى هذا الوسيط الذى يصل بين هذه النفوس و يسدل عليها وحدة ثقافية مناسبة .

الثانية : أن النقد يرسم للقراء طرق القراءة النافعة لأن الناقد يكون أكثر مرانة ، وأعمق فهما ، وأقدر على التفرقة بين أنواع الأدب وعلى تحليل نصوصه فهو بذلك يهديهم إلى نواحى الجمال والقوة فيه أو عكس ذلك فيصقل مواهبهم و يجنبهم القراءة و يبين لهم والأدباء أمثل الأساليب وأسمى الغايات .

الثالثة : أن النقد يساعد القراء على انتقاء الكتب التى تتصل بدراساتهم أو تكون ألذ لهم وأنفع ، فيعرض عليهم خلاصات لها كافية ، و يبين لهم نهجها ، ونواحى الكمال أو القصور فيها و يوفر عليهم كثيراً من الوقت . لذلك تجد الصحف والمجلات الهامة تعد أبواباً خاصة للكتب الجديدة يتناول الكتابة فيها كُتَّاب مختصون يعرضون على القراء صورة دقيقة لهذه الكتب ، وكل يقتنى ما يراه ألزم له . نعم إن القراءة الخاصة أنفع ، ولكن مَن مِن الناس يجد الوقت أو الجهد أو المال لاقتناء كل شىء وقراءته ثم الحكم عليه واختياره .

والأدب نفسه يفيد من النقد أموراً هامة :

(١) منها أنه يقوى و يتقدم ما دام النقاد يتعقبون الأدباء ، فيشتد التنافس

بين هؤلاء ، ويحسبون حساب النقد وأحكامه ، ويبالغون فى إجادة التفكير وحسن التصوير وبلاغة التعبير والملاءمة بين نفوسهم وبين القراء فاذا بالأدب واضح جميل ، وإذا به يجمع بين المثل العليا والأخذ بيد الناس إليها فيكون فناً جميلا ونافعاً معاً . تجد مثال ذلك فى تاريخ النقد الأدبى فكم كان له تأثير فى شعر البحترى وأبى تمام والمتنبى ، وتجده فى عصرنا الحديث إذ جعل الشعراء يتأنون ويجودون ويتنافسون وكذلك الكتاب والمؤلفون .

(٢) والنقد الخالق لا يقف عند بيان المحاسن والمساوى وإنما يتعدى ذلك إلى اقتراح ما ينهض بالأدب ويوسع فى آفاقه من فنون جديدة أو أساليب ممتعة ، أو أفكار تخصب الأدب وتزيد ثروته ، ولقد كانت التيارات النقدية سبباً فى تأليف الكتب والفصل فى الخصومات ، ووضع حد للفوضى فى الانشاء . فكتب الموازنة والوساطة وأدب الكاتب ودلائل الاعجاز وأسرار البلاغة كانت ثمرات طيبة لثورات نقدية فى القرون الأولى ، ولا نزال نرى آثار النقد كثيرة ، تعد هى أدباً قوياً أيضاً .

(٣) والنقد يكثر أنصار الأدب ، ويبسط سلطانه على النفوس ، ويبين صلاته المتعددة بالزمان والمكان والأفراد ، ويبين قيمته الفنية ويفسح له بين الفنون والعلوم وبخاصة فى هذا العصر الذى انصرف الناس فيه إلى المتاع المادى أو الأدب الرخيص .

وقبل أن نختتم هذا الفصل نقتبس الكلمة الآتية التى تختصر فائدة النقد الأدبى ، كتبها الأستاذ طه حسين «والمهم أن الأديب مهما يكن أمره كائن اجتماعى لا يستطيع أن ينفرد ولا أن يستقل بحياته الأدبية ولا يستقيم له أمر إلا إذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس فكان صدى لحياتهم وكانوا صدى لانتاجه ، وكان مرآة لما يجدون من لذة وألم ومن نعيم وبؤس ، وكانوا مرآة لما يذيع فيهم من رأى

وخاطر ، وما يغذوهم به من هذه الآثار الأدبية على اختلاف ألوانها ، وهو فى حاجة إلى أن يشعر بهذه الصلة و إلى أن يراها قوية متينة مترددة بينه و بينهم كما يتردد الرسول بين المحبين . وذلك يدفعه إلى العمل وينشطه للانتاج ، ويغذو نفسه بالمعانى و يثير فيها الخواطر والآراء ويشيع فى النقد القوة والجدة والنشاط ، ويلائم بين هذه اللغة و بين قلوب الذين يقرأونه و يسيغونه على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم فى جمهور الناس ومن هنا ينشأ لون من الأدب هو الذى يحقق الصلة بين المنتج والمستهلك ويحفظها على أتم وجه وأقواه وأنفعه لأنه يقوم مقام الرسول بين هذين العاشقين اللذين يختصمان حيناً و يأتلفان حيناً آخر ، وهما الأديب والجمهور ، وهذا اللون الجديد من الأدب هو النقد الذى يبلغ إلى الناس رسالة الأديب فيدعوهم إليها و يرغبهم فيها أو يصرفهم عنها و يزهدهم فيها ، والذى يبلغ الأديب صدى رسالته فى نفوس الناس وحسن استعدادهم لها أو شدة ازورارهم عنها أو فتورهم بالقياس إليها ، ولعله أن يبين للأديب أسباب إقبال الناس عليه و إعراضهم عنه ، ولعله أن ينصح للأديب بما يزيد إقبال الناس عليه إن كانوا مقبلين ، و يخفف إعراضهم عنه إن كانوا معرضين ، فهو الرسول الحكيم الذى نصح القدماء باتخاذه لذوى الحاجات ، هو حكيم بالقياس إلى الجمهور لأنه يدل الناس على ما يحسن أن يقرأوا وعلى ما يحسن أن يفهموا مما يقرأون ، وهو رسول حكيم بالقياس إلى الأديب لأنه يبين مواقع فنه من الناس ، وقد يدله على الخطأ إن وقع فيه ليتجنبه ، وعلى الصواب إن وفق إليه ليزيد منه ، وقد يدله على التقصير الفنى ليتقيه وعلى الاجادة الفنية ليبتغيها فيما يستأنف من الآثار »[1] .

هذه وظيفة النقد الأدبى من حيث أنه فن يظهر مقالات أو رسائل أو كتباً يقرؤها الناس فاذا هى فصول أدبية أيضاً لا تقل أحياناً عن الأدب الخالص ور بما

(١) الثقافة ، العدد الأول .

امتازت منه بأنها مزيج من عدة أشياء لا تتكامل فى الأدب نفسه أو الأدب المباشر ، فيها الطبيعة التى يعنى بها الأديب المنشىء ، وفيها نفس الشاعر أو الكاتب الذى صور هذه الطبيعة ، وفيها الناقد الذى تعقب الأديب يزن آثاره ويقيسها بالنسبة إلى الحقائق الأدبية والأصول الفنية وبالنسبة إلى ذوقه كذلك وفيها هؤلاء القراء الآخرون والجمهور المنتفع ما دام النقد رسولا بينه وبين الأديب يبلغه آراء القارئين .

والنقد إذا كان علما : أصولا وقوانين ، أعان الناس على قدر الأدب وصحة الحكم عليه ، ورسم للنقاد الكاتبين بعض الخطط التى تهديهم فيما يعالجون ، وحاول أن يرد عملهم إلى أصول عامة نفسية وفنية وفلسفية وأن يشرح طبيعة الأدب من وقت لآخر ، وأن يعاود قوانينه بالايضاح أو حتى بالتعديل ، ليبقى حياً ينفع الأدب والأدباء والنقاد .